الارهاب والعراق

قبل الحرب وبعدها

غسان تويني

سجلات النهار

الطبعة الثانية

الارهاب والعراق
قبل الحرب وبعدها

غسان تويني

الارهاب والعراق
قبل الحرب وبعدها

• • •



ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٥٦١٦٩٣-١-٩٦١

ISBN 2-84289-524-1

المحتويات

عالم عربي يتغيّر؟...

القرن الثالث من الألف الثالث يبدو لنا - وليس في الأمر نبوءة ولا تنبؤاً - مضاعف السرعة في التغيّر اذا ما قارناه، مثلاً، بالقرن الأخير من الألف السابق... علماً بأن التسمية الرقمية للقرون تظل نسبية، في انتظار السنة الأخيرة، حين يستجمع المؤرخون حصيلة المئة سنة ويستخلصون منها العلامة الفارقة والسمة المميزة.

على قارعة الطريق بين قرنين، ماذا نرى، وأي مشهد يبدو للمراقب - ودور المؤرخ يظل مؤجّلاً - مرسوم الاطار، ولو كانت السمات بعد غير مرتسمة؟

العلامة الأولى هي عودة الدين بزخم كان يكون غير منتظر بينما العالم من حولنا يتزايد تفجّره بالعلوم المذهلة في كل حقل: التكنولوجيا، الفضاء، الذرّة، المعلوماتية... وصولاً الى تحويل علوم «جينيات» الانسان الى «بيولوجيات» تخترع، ولا تتورع، أسوار استنساخ يحاول الدين، ومعه الأخلاقيات العلمانية،

احتواءها. وإذا بالدين «العربي» مسلماً ومسيحياً على حد سواء، يتجاوز التديّن، المتوقع نتيجة الإحباط بل اليأس، للتقوقع في عصبيات وسلفيات يجن جنونُها، فتتوسل العنف وتخطف الثورات من منطقها التاريخي، لتسوقها الى آفاق المستحيل.

العلامة الثانية هي تقهقر العالم العربي الى أدنى درجات تنمية الانسان نتيجة نصف قرن، بل قرن كامل من تغييب الحرية في كل أبعادها، بدءاً بحرية المعرفة، بحثاً واكتساباً وتأليفاً، وصولاً الى حرية الإعلام (في شقيها: حرية جمع المعلومات وتداولها، ثم حرية مناقشة المعارف والتعبير عن الرأي في كل حقل، من السياسة الى الدين)، فضلاً عن الحريات الديموقراطية وحقوق الانسان والمساواة بين الناس، وبين الرجل والمرأة.

العلامة الثالثة هي هدر الثروات التي اكتشفها لنا سوانا، فاذا بنا ننصرف عن توظيفها في التنمية الاقتصادية والانسانية على حدّ سواء، لننشئ مجتمعات استهلاك يتجاور فيها الفقراء جداً مع الأغنياء الى حدّ العهر... ونعيش في فرح اقتناء الكماليات والمدنيات الزائفة بقدر يتساوى مع اقتناء أسلحة ثبُتَ انها لا تصلح للانتصار في حرب، بل هي فقط لكسب العمولات. ونتباهى بوجود مدارس فخمة لا تنجب من المثقفين الاّ قلّة، والبقية أنصاف متعلمين، وفي طبقات، كما نتباهى بالعمارات الشامخة والقصور الخرافية المسيئة

الى الذوق والبيئة، وبالمستشفيات التي تكتفي باستنقال المعالجات ولا معاهد بحث توجهها وترقّيها... وأما الجامعات فمصانع للبطالة ومحطات هجرة للمتفوقين حين يقدرون.

العلامة الرابعة تراجع الحركات النهضوية والتحريرية الى حدّ فقدان الاستقلال الحقيقي (في ظلّ أنظمة كلها استبدادية، عسكريتارية كانت خاطفة للعقائد، أم إقطاعية وملكية ومقولبة للفكر والتقدم) الى أن صارت بيننا وبين عودة الاستعمار الى أرضنا محطة واحدة، أو نصف محطة علامتها احتشاد الجيوش الأجنبية لا نقاوم وجودها الا بشبه احتجاج لا تأبه له، وقد سبق لها أن تقاضت منا نقداً وعداً أجرة خوضها على جبهاتنا حرباً من بعضنا على بعض آخر، ونحن لا نعرف بعد ان لم تكن تلك الحرب بل الحروب مفتعلة مصطنعة نصفّق لها عن جهل بأصولها وقدراتها ومراميها.

●●●

هذا هو المشهد في عالمنا من داخل، يتغيّر من السيئ الى الأسوأ.

من خارج، أية متغيّرات تتحكم في تطورنا؟

أولاً: اسرائيل، التي اصطدم طموحها الى استعمارنا حرباً وسلماً، بقوة الوزن والعدد والمساحة،

فضلاً عن الثورة ولو تلبست بالعنف المطلق الذي يصفونه -ولم لا؟- بالإرهاب.

وقد صار أملنا الأخير بإنقاذ مقدساتنا وحقوقنا هو في انفجار اسرائيل قبل استسلامنا، نتيجة غرقها في عنفها، هي، المطلق كذلك، وفي وقوعها أسيرة خوفها... فبدل بسط استعمارها لأرضنا ولخيراتنا (التي لم تقصّر في استحلاب ما تيسّر لها منها، عبر تسلّطها على الرأسمالية العالمية) اذا بها تتحوّل الى «غيتو» مسوّر يحتضن مجتمعاً سياسياً غارقاً في العوز (لولا أميركا) وفي الفساد، فضلاً عن الحيرة والضجر بل السأم من الحروب المستحيلة الانتصار.

وغني عن القول أن اسرائيل تطمئن الى تخلفنا، ولعلها تتمنى أن تساهم في استنقاعنا في الجهل والظلم، طمعاً منها بأن يفسح لها السلام، اذا ومتى تحقق، مجال الحلول محلنا في تثمير ثرواتنا، وجاهليتنا صاغرة تسلس لها القياد.

ثانياً: الهجمة الأميركية، الذاهبة بشغف الى حدّ الحرب، الا اذا حقق لها مجرد وجودها العسكري المتكاثف مجال التّلهي بمعالم دولنا وأنظمتها عملاً بالنظرية الستراتيجية المعلومة: استعراض القوة للاستعاضة بذلك عن استعمالها. وهي اذا ارادت لنا شيئاً من التنمية في زي حضارتها والرقي، فحتى تزداد شهيتنا والحاجة الى استهلاك منتجاتها والتشبّه - فقط التشبه - بالثقافة الرديئة التي تصدّر منتجاتها حتى الى

أوروبا والصين. وهي شيء مختلف عن الفاعلية المعرفية الخلاقة التي تتحصن بها أميركا لتكون الأولى في العالم، علماً وصناعة بل وفكراً وأدباً وفناً.

ثالثاً: التردد الأوروبي، الحائر بين دور مستقل عن أميركا – ولو غير معاد لها انما مختلف أهدافاً ونوعاً في التعاملً– شرطه قيام شراكة عربية أوروبية متوسّطيّة... وبين الانكفاء عن هذا الطموح لعجزها عن القيام بدور فعّال في إشاعة السلام الذي بدونه تسقط الهوية المتوسطية، وعن المساهمة الفعالة في التنمية العربية التي بدونها تستحيل محاولة المشاركة عودة الى استعمار (أي حرفياً، التعمير بديلاً من الكيان العاجز عنه!!!)ً صار في هذا العصر مستحيلاً.

● ● ●

وتنقفل حلقة المتغيرات عند نقطة البداية: الدين، وهو هنا الإسلام. والعرب في شأنه على مفترق تاريخي خطير.

فاما أن يخرجوا مما قيل لهم مرة انهم تميّزوا به: انهم «الحضارة الصوتية»، ولكنها الآن صامتة، لا يرتفع صوتها...

أو يظلوا على أسرهم المتقوقع في الأصولية، فيتقرر مصير الإسلام في عودة الريادة الى إحدى الإمبراطوريتين التاريخيتين: تركيا، حيث «الإسلامية

المدنية» صارت هوية ديمقراطية مقبولة دولياً... أو إيران الفرس حيث «الجمهورية الإسلامية» تحاول أن تسلك السبيل «الإصلاحي» الذي يُشرّع أمامها أبواب الحوار العالمي.

وغني عن القول أن انتصار هذا الإسلام أو ذاك، أو تقدّم الاثنين معاً، من شأنه أن يطوي صفحة الخطر على العالم الخارجي، أي «الإرهاب»، وذلك عبر قيام قنوات التعامل «الطبيعي» تنميةً واقتصاداً خصوصاً، ثم سياسةً وعسكراً، وأخيراً ثقافة واختراعاً. والطلائع في غنى عن التصريح.

●●●

هل حلقة التغيّر العربي اذاً مقفلة؟

لا، ليس حتماً.

المطلوب، لكسر الحلقة، العودة الى أصول النهضة العربية التحديثية (حتى في الدين، بل خصوصاً في الدين)، نطلقها من جديد ولا نأسرها كما فعلنا مطلع القرن العشرين... فأدى ذلك الى سلوك سبيل «صراع حضارات» فرضناه نحن على أنفسنا، قبل أن يكتشف غربٌ متذاكٍ انه سيصير أمراً محتوماً.

السبت ٢٨ كانون الأول ٢٠٠٢

الاربعاء ١٢ أيلول ٢٠٠٢

بيرل هاربور، هيروشيما أم... أوكلاهوما؟

المرجح ان تأخذ أميركا وقتها - تضمّد الجروح الآن، وتحصي الضحايا - قبل ان تنتهي تحقيقاتها، كما بعد انفجار أوكلاهوما، الى اكتشاف المسؤول عن الزلزال الذي زعزعها... أكان مجرماً واحداً، أم عصابة، أم «جيش أحمر»، أم دولة أو دويلة. واذ ذاك، لا احد يمكن ان يتكهن بردّها والعقاب.

«ان الحرية نفسها قد هاجمها هذا الصباح جبناء لا وجوه لهم. وسيتم الدفاع عن الحرية» ... قال الرئيس بوش. هل صحيح؟ ربما...

لكن الأصح قولاً هو أنه اعتُدي على القوة، أعظم قوة، القوة الأميركية... فبدا واضحاً لهذه القوة المهولة كم هي عاجزة عن الدفاع عن نفسها... هي تقدر على الرد، والانتقام، فالانتصار، كما فعلت بعد «بيرل هاربور»، ولكن ثمة شيء في طبيعة القوة يجعلها عاجزة بنسبة ما هي مهولة. ليس فقط عاجزة عن حماية نفسها،

بل عاجزة كذلك - كما في الروسيا والشيشان، وبنسبة أصغر بكثير كما بين اسرائيل والفلسطينيين ... عاجزة عن الحسم السياسي، عندما لا تتصرف بسياسة بدل استعمال «القوة الصافية».

● ● ●

الا في حالة كهيروشيما، حيث استعملت «القوة المطلقة» اي القنبلة الذرية ... وحتى اذ ذاك، تنتصر في الحرب، ولكنها لا تمنع شعباً كاليابان من الانتقام مرتين: مرة باستعادة ازدهاره وقوته القومية، ثم مرة اخرى باللجوء الى الارهاب كما مع «الجيش الاحمر» الذي ظل يرعب العالم سنوات، ثم عاد اسمه الى الواجهة ... ترى، صدفة؟

الطريف (؟!) ان رئيس حكومة اليابان اعلن ليلاً انه اصدر اوامره الى القوات اليابانية بحماية المنشأات وحتى الثكن الاميركية، واكد للرئيس بوش استعداد اليابان لمد يد المساعدة حيثما تريد اميركا.

ولكن ... حتى اذا كان «الجيش الاحمر» مسؤولاً، فالشرعية اليابانية ستكون ضده. لأن الشرعية في العالم كله تنتهي الى الالتزام العضوي لا بالحرية (التي اعتبرها بوش مستهدفة) بل، وهذا هو الأهم: الالتزام باحترام الانسانية. وعدوان اجرامي كالذي حدث في اميركا هو، في التحليل النهائي، جريمة ضد الانسانية، مما

يميّز هذا العدوان، وكل عمل يوصف بالارهاب، عن «بيرل هاربور» التي كانت عدواناً عسكرياً حربياً، ولو لم تكن اميركا بعد، آنذاك، قد اعلنت الحرب على اليابان.

العدوان على اميركا امس يكون عسكرياً حربياً اذا اظهر التحقيق ان المسؤولية تقع على دولة او ما هو بمثابتها. واميركا اذ ذاك سترد بأقصى القوة.

● ● ●

ولكن ماذا اذا لم يظهر التحقيق شيئاً راهناً، في وقت قصير؟ وماذا اذا استمرت الابواق الاسرائيلية تتهم فلسطين والعرب والاسلام، وقد سارعت الى ذلك من اللحظة الاولى ناشرة على تلفزيوناتها صور اطفال في القدس (وقالت كذلك في شوارع بيروت، كذا!)؟... ولماذا لم تنشر، في اللحظة ذاتها، صورة ياسر عرفات متجهم الوجه كئيباً وهو يستنكر الاعتداء بكلام يفوح منه الألم، بل اليأس؟

ثم... لماذا لا يذهب بنا التصوّر المقابل الى الظن باسرائيل نفسها، وهي أقدر من «بن لادن» الذي تردد ذكره فوراً، وأقدر من الفلسطينيين حتماً، على تنظيم مثل هذا العدوان بوسائل متجذرة في اميركا، قادرة على التحرك بدقة واطمئنان؟

● ● ●

كل الاحتمالات مفتوحة، ولو فضّلت واشنطن عدم اكتشاف مصدر الاجرام اذا تبين انه من حيث يحرجها اكثر.

وتبقى الحقيقة الأصدق هي تلك التي اكتشفتها أميركا أمس: أن عجز القوة المهولة يتزايد بنسبة ما يتزايد هولها وتتزايد عظمتها. الى حد انها تصير عاجزة عن حماية نفسها: كما في بيرل هاربور كذلك في أوكلاهوما... وصولاً الى هيروشيما، تعيش ذاكرتها ما عاشت المفاعيل!

ولعل أبلغ عبرة لما اصيبت به اميركا شهادة من أهلها... تصريح أدلى به اميرال سابق في برنامج باللغة الانكليزية من اذاعة «صوت أميركا» بالذات، اذ قال ما معناه، انه لا يجدي اميركا نفعاً ان تنفق مئات ملايين الدولارات على برامج صواريخ للدفاع ضد الصواريخ، لأن الخطر على اميركا لن يأتي من ذوي الصواريخ الذرية، بل من شعوب مظلومة او جائعة او متخلفة. فالاحرى بأميركا أن تهتم بحل هذه الازمات بدل بناء الدروع الفضائية.

نصفّق للاميرال الذي لم نحفظ اسمه؟ وبعد؟

مطلوب من اميركا ان تكون عظيمة في صناعة دروع على الارض، لا في الفضاء، لان قوتها «الصافية» ستظل خطراً عليها، صعبة القيادة، مستحيلة التحريك، مستحيلة الحماية، اذا لم يطمئن العالم العالم، عالم الناس، الى استحقاقها قوتها وتحمّلها مسؤولية هذه العظمة.

رسائل من وحي "الصدمة"

«النهار» - ملحق خاص، الاربعاء ١١ أيلول ٢٠٠٢

اذا كانت أميركا - أضخم، بل أعظم أمة أنجبتها الجغرافيا - تبدو اليوم حائرة، بل واجلة خائفة من المجهول، تتلّمس، في عتمة العنف، تاريخاً تستلهمه وبطولات - ولو متواضعة - تستأنس بها ...

اذا كانت أميركا هذا وضعها، فلبنان معذور، ومعذورة من بعده العرب - نعم العرب، وبالمؤنث - اذا كانت في حيرة من أمرها ولا من يبصرون.

●●●

هذا اذاً زمن التأمل والتروي، بدل الانقضاض على الناس والأيام، أو القنوط والانكفاء الى حدود الزوال ...

كلمة أولى الى أميركا، صدقها في أنها عصارة رسائل «العقّال» فيها ومنها، قيلت وترددت مراراً و ...

لا يسمعون!

ليس بالارهاب - ولو ارهاب الدولة الأرهب - وارهاب صنيعتها التي تقلّد العظمة بحقارة متوارثة... ليس بالارهاب، نقول، تتغلب الدول على الارهاب، بل بسياسة حضارية، تجمع الى السياسة الاقتصاد الاجتماعي والمشاركة في التنمية ومقاومة تصحّر الارض (الارض، الارض الصارخة في وجه أميركا المتغطرسة!) وتصحّر الانسان المغلوب على أمره بالعولمة.

فمبروك لأميركا حربها اذا خاضتها، ولعلها فاعلة... انها من افغانستان الى عراق الى عرب بعد عرب، فالى ايران والى آسيا سائرة فالى... فيتنام كونية قد يتعذر الانسحاب منها بسلام!

●●●

أما الى العرب - أي منا الينا!!! - فرسالتنا رجاءً ان نتوقف على شفير الهاوية التي نحن اليها مهرولين - وبشغف! - من حيث لا نعترف ولا ندري... نهرول بزعامة أشباح من هواجس ليالي التاريخ السالف البائد!

ترى، أوَلم يعد لنا من يخلف فيصل الكبير وعبد الناصر، بل وعرابي باشا وسعد زغلول، وعبد القادر الجزائري... وما حفل به تاريخنا العظيم...

أوَلم يعد لنا من يَخرج بنا من الظلام، زعيماً ثائراً

غير شبح بن لادن؟ ... ولا نجرؤ حتى على الاعتراف بذلك، بل ننساق خلفه من ليل الى ليل، وكأننا نسترق أحلام الآخرة بديل الحياة النيّرة وعزّة الخلق؟

●●●

هنا تحية الى سمو الأمير عبدالله بن عبد العزيز آل سعود (ترى، متى يعطي المثل الصالح فيقلّص الالقاب، وهو المعروف بين أهله بالتواضع والبساطة؟).

تحية الى العبدالله لأنه كان أول من تجرأ أخيراً وخاطب مشايخ الدين والعلماء داعياً إياهم، ولو بالمزيد من الحسنى، وشيء من الخفر، الى «الانفتاح قليلا لافهام الناس، الخ ...»

ترى، لماذا لم ينصح بالأكثر؟

ان الوهابية - التي يلازم حلفها السعودية منذ ثورة هذه وقيامة تلك - انما نشأت في الاصل كحركة تحررية تريد من تأصيل الاسلام العربي بناء عصبية في وجه الاستبداد العثماني.

أفلم ندرك - و«كلنا في الهوى سوى»! - ان ليس «الانفتاح قليلا» هو الذي نحتاج، بل نحتاج الى تحديث تحررية العرب، وبألوية اسلامية جديدة، في وجه «العثمانيين» الجدد: أميركا، ومن لها ومنها، فلا نستمر نعيش على «موجتين» وفي طبقتين من التاريخ،

واحدة تُفرح النفس بسلفياتها نرددها، وأخرى تستهلك «منتجات» حداثة نسلس لها استثمار خيراتنا، ولا نعمّر من علومها وتقدميتها فنصنّع ما يمكّننا من توظيف خيراتنا في أنظمة لا استبداد منها، ولا عهر في حياتها... لا تجهّل شعوبَها فتغدو هذه خرساء تائهة في الصحارى؟

●●●

ثم رسالة ثانية فيها عتب وتذكير: الأمير عبدالله يستصرخ العدل للفلسطينيين «لأنهم مسلمون مثلنا وإخوان لنا»، يقول.

لا يا سيدي الأمير: الفلسطينيون، كاللبنانيين والسوريين والمصريين وحتى العراقيين، عرب أكثريتهم من المسلمين، ولكن «اخوانهم» واخوانكم في القومية مسيحيون لا يقلّون عن المسلمين عروبة، منذ ما قبل الاسلام... وفيهم صح الكلام المقدّس: «ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون».

... بعض الخروج من سلفية العهد العثماني البالي ان نتذكر ذلك. وأن نذكر كم كان للمسيحيين دور عظيم في مشاركة المسلمين ثورتهم على الظلم العثماني، والحرب على «الصليبيين»، ومناهضة الاستعمار

الاوروبي المتصنّع المسيحية، فضلاً عن النضال ضد الصهيونيين!!!

فلنتذكر، إن تنفع الذكرى...

وشكراً لمن يتقبل الرسالة بعقل «منفتح» وقلب كبير.

●●●

تبقى رسالة الى الشباب اللبناني، المعذور اذا كان يصيبه اليوم ما يصيب شباب أميركا، على... عظمتها!!!

انما قبل ذلك، رسالة الى «القضاء» الذي واجهه الشباب بغضبته... القضاء اللبناني ما غيره الذي يطالبوننا بتقديسه، ويا ليت نقدر.

لا نقدر؟... بلى سنقدر عندما يتذكّر «القضاء» كجسم متكامل أسماء عماد شهاب، حسن عثمان، عاصم بوضاهر، ووليد هرموش.

هل تذكرون؟... انهم القضاة الذين اغتالهم «الارهاب» (ولا نميّز، فالارهاب من حيث أتى صار واحدا...) وحتى الساعة لم نسمع ولم نرَان «القضاء» (كجسم متكامل تحتاج كلمته الى «تقديس»!) قد نجح او حاول النجاح جدياً في معرفة القتلة والقبض عليهم ومحاكمتهم (بعدل و... «رجاء»!) ثم انزال العقاب الذي في يد القضاء المؤتمن على حقوق الناس (فكيف

بحقوق القضاة؟) وحياتهم، انزاله حتى الاعدام!

نعود الى الشباب نخاطب غلاته، فنقول:

الحرب الاميركية مستمرة (وكذلك العولمة وما اليها ...) لن تصدَّها الا خيباتها عندما تدرك ان انتصارها مستحيل! وستدرك.

فلا يحاولنّ أحد انتصاراً عليها في حرب مستحيلة، تزيدها شراسة وكفراً بالانسان حيثما كان... وليس لنا من ذلك عزاء، ولو أمعنّا في ارهابها.

●●●

كلمتنا الاخيرة الى الانظمة العربية التي يريد لها دعاتها ان تخفي عوراتها وتختبئ وراء ارهابٍ تستدرج «الشعوب» اليه، لعله يستّر عليها.

الجيل الطالع من القهر والتعاسة «بفضل» استبداد الانظمة واستحلابها خيرات الارض والشعب...

هذا الجيل يجب أن يدرك أن «الصدمة النفسية» التي بدأت في اميركا وتهز العالم بأسره، ستخرجه من عقم فكري أرادته له «طبائع الاستبداد» التي تجسّدت في الحروب العبثية الوسخة و«افرازاتها» المستمرة في صفوفه...

نعم، يجب أن يخرج الشباب، وسيخرج من الكرسحة السياسية التي يأسرونه فيها.

فاليه نتوجه قائلين:

حذار «الثالوث غير المقدّس» الذي ابتلينا به نتيجة حروبنا ...

حذار اليأس مكان فرح الشباب بالحياة .

وحذار الجهل مكان الطموح واللهفة على الانفتاح .

وحذار العنف ، حذار العنف مكان الايمان بالانسان والتاريخ !

إذذاك ، متى اكتمل وعينا ، تكون الثورة الحقة !

"أبواب الجحيم" ...
هل نفتحها نحن على لبنان؟

تعالوا نتصارح. المخاوف التي تثيرها في نفوسنا أحداث العراق المتوقعة - وقد صار أهمها، أي قرار الحرب، في حكم المقرر - ماذا منها حقيقي، وماذا منها يصح وصفه بالأوهام، وماذا عن الهواجس، وماذا، ماذا، خصوصاً، عن الخرافات؟

لنتصارح! نعم... علماً بأن أحداً لا يسعه ان يجزم بعد في شيء يدخل في نطاق ما صار يوصف هنا، وفي «عواصم القرار» (أي قرار؟) بغياهب «اليوم التالي»... أي اليوم الذي يلي الحرب.

- ١ -

أولاً: ماذا عن الخرائط؟

نعم، هنالك خرائط... والكثير منها صار منشوراً، ولكن ليس من خريطة تطابق الأخرى، لأن الخرائط

كلها توقّعات، وحسابات مطامح «فيما اذا»، و«فيما اذا لم ...» والاخطر من ذلك: لانها «خرائط التحسّبات»، فانها «خرائط المخاوف».

والحقيقة الأكيدة ان واشنطن لم ترسم، لم ترسم بعد، ولن ترسم قبل «اليوم التالي» للحرب، خريطة للعراق وكيف سيصبح... لكن ذلك لا يعني ان ليس ثمة في ملفات واشنطن (وسواها وخصوصاً بريطانيا الأكثر اختصاصاً بالخرائط «الملغومة»!) اعداد من الخرائط المختلفة، بل «المتناقضة»، تبعاً للتحسّبات حيناً، وللمخاوف، وأخيراً لما تفرضه المصالح الستراتيجية وأبرزها السيطرة على آبار النفط ومصباته.

ثانياً: في التقسيم والتقاسم

التقسيم وارد، للعراق ولسواه كذلك. والتقاسم كذلك، انما فقط في حال اشتراك فرقاء «ستراتيجيين» مع اميركا في الحرب – وهذه معالمها غير معروفة بعد، كما ان حاجاتها العسكرية غير مقررة – وبالتالي انتهاء الحرب الى حالة لليوم التالي يوجد فيها على ساحة عراق «مقهور» عدد من الجيوش والقوى قد سيطرت على الوضع، أو هي تقتسم العراق لاستكمال السيطرة... وهذا سابق لأوانه جداً جداً!

لكن ثمة «تحسّبات» تضعها هيئات الاركان «الجيوستراتيجية» وغالباً ما تسرّبها عمداً لاختبار ردود

الفعل عليها، وبالأخص لاختبار «مردوديتها» المحتملة لدى المعنيين جميعاً، أي بمن فيهم «موضوع» التقسيم والتقاسم.

●●●

وعلى سبيل المثال، يمكن الجزم ان ليست ثمة خريطة نهائية تقتطع «دولة كردية» في العراق لأن انشاء مثل هذه الدولة، ليس في مصلحة اميركا، اذا اخضعت كما تريد العراق بكامله لسيطرتها، وهذا ما تتمناه، فلماذا اذذاك دولة كردية؟

فقط الأكراد، وحدهم يتمنون مثل هذه الدولة، وغالب الظن ان الحزبين الكرديين الرئيسيين قد تصالحا بمعزل عن واشنطن، وربما لوضعها أمام الأمر الواقع ... فالأكراد، في كل مكان، يعرفون ان اميركا تتردد، وستتردد اكثر فأكثر في تلبية الحلم الكردي لأن الدولة الكردية معناها ازمة مع تركيا، وربما مع ايران وسوريا. والتيار الغالب في واشنطن يعتبر ان تركيا أكثر وزناً في حساب التحالفات من تلبية مطلب كردي لا «مردود» ايجابي حاسم منه.

وقاعدة «فرّق تسد»، التي تنطبق ربما على حالات أخرى، لا تطابق المسألة الكردية في امتداداتها عبر حدود دولية ثابتة لا موجب لزعزعتها.

●●●

وما يصح على «دولة كردية» يصح بالأحرى على «دويلة شيعية» ليس ثمة من يطالب بها، وقد تنتهي اذا نشأت باعطاء الدولة الشيعية الكبرى، ايران، منطقة نفوذ في العراق الذي اثبتت حربه مع ايران قدرته على الاحتفاظ بوحدة وطنية صامدة بين الشيعة والسنّة.

فلماذا اللعب بالنار؟

ثالثاً: في الخوف من «ابواب الجحيم»

ما يقال عن شيعة العراق احرى ان يقال مثله، وأكثر، عن شيعة السعودية والخليج، حيث يشكل الشيعة عنصر استقرار في مقابل «التطرف الوهابي» وهو سني.

واذا استمرت العلاقة بين ايران خاتمي على توافقها مع النظام السعودي (وهذا ما أكدته زيارة خاتمي للمدينة المنوّرة، واجتماعه بالأمير عبدالله) فلا سبب لخلق ذرائع لمواجهات في غنى عنها، وتوسيع بيكار قلق سياسي - شعبي سّرعان ما تنفتح بعده «ابواب الجحيم» على نسق ما هو حاصل في افغانستان... مما ستعجز واشنطن وكل حلفائها العسكريين - على افتراض «انزلاقهم» معها - عن كبته فضبطه والحؤول دون «بلقنته» مجازر وصراعات «عنصرية» لا تنتهي!!!

حالة «جحيمية» واحدة يمكن ان تنشأ في شبه الجزيرة العربية هي عجز النظام السعودي عن تطوير ذاته

في اتجاه «أمن سياسي» جديد يتركز على تذويب النزعة التطرفية على المستوى الشعبي (أي في القاعدة!) والحؤول دون نشوء شبكات غير منظورة عبر الحدود مع اليمن والمجموعات الاسلامية خارج الحدود، وصولاً الى افغانستان وباكستان.

وتلك تكون ابواب الجحيم الأوسع، لأنها قد تُلهب كل شيء، خصوصاً آبار النفط ... والمؤشر الأفصح لوجود تخوّف اميركي من ذلك هو التهافت على السيطرة على نفط العراق بديلاً عن السعودية، ناهيك بالاتفاق النفطي الكبير الأبعاد الذي جرى توقيعه فجأة مع موسكو، في «مورمانسك» بالذات، لتعزيز الرمزيات لمن يحسن قراءتها!!!

- ٢ -

رابعاً: الابعاد الاسرائيلية «المخفية»

هذا قليل من الكثير الذي يمكن ان يقال مما يمكن تسميته ... خرائط الجحيم!

نسارع ونقول ان العرب يخطئون اذا لم يدركوا، في البعد الستراتيجي الأرفع سوية، ان اسرائيل هي في آنٍ واحد حليف اميركا وعدوها ...

اسرائيل هي عدوة اميركا لأنها تريد استدراج اميركا الى وضع طائفي - عنصري «تتخربط» معه كل الحالات المستقرة ولو نسبياً، او القابلة للبقاء في حالة «سيطرة

أمنية» مقبولة ... والسبب واضح لمن يقرأ السياسة الاسرائيلية في عمقها التاريخي. ويا ليت واشنطن تتوقف قليلاً وتتأمل في ذلك، لكانت تدرك ان ثمة هدفين «باطنيين» للسياسة الاسرائيلية:

١. تكريس التطرف الديني والطائفي والعنصري، لأن اسرائيل هي «الدولة الدينية» الأولى في المنطقة بل في العالم. ولعل عدواها هي التي تدفع المسلمين والعرب في هذا الاتجاه، والمسلمون والعرب يهرولون في جهالة كلية لا حاجة الى اثباتها ... واسرائيل وحدها، من هذا المنظار، لها مصلحة في الوصول الى تطبيق قاعدة «فرّق (أي قسّم) تسد»!

٢. فتح حدود الدول الحالية، بل ازالة بعضها، وفتح ابواب المبادلات «السكانية» حتى يصير في وسع اسرائيل تهجير الحد الاقصى من الفلسطينيين، وبنوع أخصّ حاملي الجنسية الاسرائيلية، لقلب الموازين الديموغرافية في فلسطين واسرائيل معاً ... وصولاً الى منع اميركا من التزام ما كرره الرئيس بوش في خطابه الأخير: اقامة «دولة فلسطينية» في موازاة الدولة العبرية.

وثمة «مساحتان» تتسعان - أكثر من الاردن ولبنان وسوريا - للتهجير الفلسطيني المطلوب اسرائيلياً: العراق، والجزيرة العربية، حيث الآفاق الاقتصادية، فضلاً عن سعة الارض، «تسمح» بذلك!!!

ولا يفوتنا - يجب ألا يفوتنا خصوصاً في لبنان،

اليوم بالذات – الهدف التاريخي الثالث المعروف:

٣. الطمع بالمياه اللبنانية في الجنوب، وهي المدخل الى تقاسم المياه العربية كلها. وخير وسيلة للوصول الى ذلك هي خلق ظروف موضوعية في الجنوب (كاضطراب امني مفتعل، من حيث يدري «المقاومون» اللبنانيون والفلسطينيون، ولا يدركون!) فتعود اسرائيل، في غمرة الاضطراب الناجم عن حرب العراق والحرب على الارهاب، الى احتلال الجنوب وتهجير أهله، باستثناء المخيمات ... ثم تهجير المزيد من الفلسطينيين من الداخل الى مناطق المياه وصولاً الى الليطاني ...

واميركا مشغولة بأبواب جحيم أخرى، فلا تتدخل!!!

– ٣ –

خامساً: كيف يتفجّر لبنان

باستثناء هذه الحالة، وحالة العودة الى «حرب اهلية» جديدة (و«من أجل الآخرين»، طبعاً، وقد تعوّدنا ...) يبقى «كيان» لبنان الدولة الأكثر استقراراً، والأسلم اقتصاداً، والأضمن حدوداً في العالم العربي كله ... وأكثر مناعة، بنوع أخصّ، من الشقيقة الكبرى سوريا ... وهنا خطر لبنان على اسرائيل!

ولنفصح، وقد بدأنا مقالنا بالدعوة الى المصارحة،

فماذا أحرى من أن يتصارح اللبنانيون؟ ... فلنتصارح :

الحؤول دون استمرار «قرنة شهوان» في محاولة احتكار التمثيل المسيحي والسير به الى المزيد من التفرقة – وهو ما يفعله بعض أبطالها «سليقياً» بقوة استمرار زخم ذكريات الحرب الكئيبة التي دفع ثمنها المسيحيون اكثر من المسلمين، وليس الوقت وقت حساب و لا محاسبة ...

الحؤول دون ذلك لا يكون «اصطناع» تجمعات مسيحية أخرى – وهذه وتلك تخاطب سوريا أكثر مما تخاطب بعضها البعض ... وسوريا بهذه وتلك أعرف، وأعرف بأسباب عدم احترام من كان وربما لا يزال يسايرها هنا وهناك وهنالك، على وقع اوتار لا نعرف أيها أنشز انغاماً ...

الحؤول دون ذلك يكون بالاعتراف بأن «الكيانات الطائفية» صارت أمراً واقعاً، انما تجب اعادة تكوينه على كل «الجبهات» ...

فلا يُبيحنّ محتكر لمحازبة الله لنفسه، بهذه الحجة، اتهام سواه بطائفية هي واقعه هو (وبمزيد من النشاز، ولا بأس!) ... نسلّم بذلك، شرط ان نقطّع حلقة التصعيد «اللولبي» ونفتح، بدل التهديد بابواب الجحيم، أبواب الحوار والالفة ولو من هذا المنطلق، ونقلع عن التقوقع المتنكر بازياء الوطنية ...

ولا تستمرنّ جمعيات دينية مستحدثة في اصطناع نشاطات استفزازية بحجة استزادة الايمان ... والايمان

بالله براء من المظاهر والمخاطبات التي تدعو الى التفرقة بين مؤمن ومؤمن، وبين أهل كتاب وأهل كتاب لله ذاته، آخر ...

ولا نجعلنَّ جميعنا التهافت على المغانم (ومنها مجالس انماء زائفة!) بديل مشاركتنا معاً في بناء الوطن الواحد.

وفوق ذلك كله ... لتكن الدولة دولة الجميع، ولا استرهان، ولا تصنّع شعارات باللسان الخشبي، بل الكاوتشوكي، فارغة من المواقف الجوهرية الصريحة.

●●●

ثم، ثم ...

فلنتذكر اننا نريد، ويجب ان نريد جدياً، الغاء الطائفية ... لكن ذلك لا يعني «الغاء الطوائف» ... وهذا ما لا ينص عليه دستور، ولا تقوى سياسة على تغيير واقعه الاجتماعي، بل التاريخي الحضاري!

حسبنا من ذلك ان يطمئن المسلم الى المسيحي القوي بذاته وبجذوره وبصدق تمثيله، وليس الى المسيحي الذي يستمد منه قوة يستقوي بها على المسيحي الآخر.

وكذلك، حذار ان يظن المسيحي ان حليفه الطبيعي هو المسلم الضعيف في صدقية تمثيله، فيسهل حينذاك توسّله ضد المسلم الآخر ...

الحرية، في جوهرها الاستقراري، ان تكون تعاقداً متكافئاً بين الأقوياء في رصيدهم الذاتي من كل صوب... شرط ان ينفتحوا بعضهم على بعض باخلاص وصدق واطمئنان الى الذات والى الآخر!

ضمان حقوق المسيحي يقدمه المسلم القوي دون سواه... والمسيحي القوي الرصيد وحده يضمن حقوق شريكه المسلم في الوطن الواحد، واذذاك لا يبقى لهذا ولا لذاك حاجة الى المزايدة في داخل طائفته.

فكفانا نفاقاً متبادلاً، وكفانا رياء...

وكفانا تذاكياً يذيب البقية الباقية من مناعة العقل في حياتنا وايماننا بالله، كلٌ وفق مذهبه... وذلك يكون طريق ايماننا بالوطن وفق «المذهب الوطني» اللبناني، وبدون استقواء بالغريب على القريب، وبدون «تدجيل» على القريب والغريب... وهذا وذاك بحقيقتنا أعرف!

•••

فلتتوقف المزايدات.

وليتوقف التهويل بالخروج على الميثاق.

الميثاق في جذوره «الشعبية» العميقة كان، رغم الحروب التي نستجرُّ ذكرياتها المكربة، أقوى من نفاق المنافقين، أينما كانوا ومن أين أتوا... والاكثر مناعة من الميثاق هي قواعد تكوين هيكلي يزول بنا جميعا، اذا زعزع أحدنا الاعمدة وفي ظنّه انها تقع على اعدائه – «يا

رب»! – وليس عليه كذلك!!!

... وان لم نتصرف من منطلق الحفاظ على النظام، كلنا معاً، بدل تناتش اشلائه وهو ليس بعد جيفة ميتة... تكون «على نفسها جنت براقش» لبنان، ففتحت هي لنفسها أبواب الجحيم لتحرق نفسها في ناره المستعرة عند الآخرين، لا عندنا... بعد!

............................الاثنين ١٦ أيلول ٢٠٠٢

الحرب آتية؟... ويفاجئنا تاريخ من نار

تتساءل أوروبا، أكثر فأكثر، وقد انتقلت قضية الحرب على العراق الى الشارع (وصولاً الى سيدني أوستراليا) اذا كان لا يزال في وسع الرئيس بوش ان يتجاوز كل المعارضات، بما فيها المعارضة داخل اميركا، ويمضي في قراره ولو لم ينل «تفويضاً» واضحاً من مجلس الأمن الذي ينعقد اليوم الاثنين.

الترجيحات كلها تؤكد انه لم يعد في وسع الرئيس الاميركي التراجع، حفاظاً على هالة «السلطوية» الاميركية، ولو «وحدانية»، فضلاً عن الخسائر التي ستتكبدها ادارته:

أولاً: في الانتخابات النيابية في تشرين الثاني، والرئيس بوش يتكل على توتير «الشعور الوطني» لتأمين التفاف شعبي حول حزبيته... فكيف ينال ذلك اذا تراجع، بعدما تقدّم انتشار القوات الاميركية في المنطقة الى حد التأهب الأقصى، وما يرافق ذلك من انفاق

باهظ، ولا قاعدة شعبية تبرر هذا الانفاق؟ ...

ثانياً: في الحقل الاقتصادي، حيث بدأت أسعار النفط تنذر بارتفاع جنوني ... وأسعار البورصات تحرّكت قليلاً الى فوق، ثم عادت تتدنى وسط تعليقات شبه اجماعية تتوقع أن يحتاج «اقتصاد السوق» الاميركي الى سنوات للنهوض من الكبوة التي ابتلي بها.

ثالثاً: على جبهة «الحرب على الارهاب» الأولى، في افغانستان، حيث تتوالى التأكيدات ان بن لادن والملا عمر لا يزالان على قيد الحياة يتآمران، وربما في بلاد الأفغان اياها حيث تعلن «طالبان» عزمها على القيام بحرب مضادة، وارهابية، ضد القوات الاميركية ... ناهيكً باستمرار التدهور في باكستان الى حد التهديد بانفجار اصولي يبدّل المعطيات الستراتيجية في المنطقة.

●●●

في ضوء ذلك، يتوقعون في باريس خصوصاً ان يتأثر الموقف الاميركي بتزايد «مخالفة» الرئيس شيراك العنيدة (رغم الحاح واشنطن ورسائلها والرسل والمكالمات الرئاسية الهاتفية ...) فتتحاشى اميركا السير في مشروع قرار في مجلس الأمن يعرّضها لمعارضة ثلاثية تتكوّن ملامحها في الأفق الدولي: فرنسية، روسية، صينية.

كيف يكون ذلك؟

قرار في مجلس الأمن يؤكد عودة المراقبين، انما بشروط متزايدة تجيء معطوفة على المهلة التي وافقت اميركا على اعطائها للمراقبين... و«تكفل» الشروط - المشروعة في ظاهرها - فشل المراقبين على نحو تفيد منه اميركا لمفاجأة العراق بضربة مباغتة تبرّرها بمعلومات دراماتيكية عن استعداد العراق لاستعمال اسلحته قبل اكتشافها، مثلاً...

وتتحقق هكذا نظرية «الستراتيجية الوقائية» التي ابتكرها «مفلسفو» سياسة بوش ولم تجد من يتبناها سوى بريطانيا وايطاليا برلوسكوني التي تمزّقها التظاهرات... دائماً التظاهرات!

وبعد الضربة الاميركية - تظن واشنطن! - نرى ما نرى...

● ● ●

ثم ان في الحسابات المخفية كلاماً كثيراً عن «لا - شعبية» صدام حسين في العراق، فتخرج هذه «اللاشعبية» الى العلن عند الضربة الأولى... وعن عدم سيطرة النظام العراقي على كل قطاعات الجيش، فتنهار المقاومة العراقية العسكرية، وعن... وعن... وصولاً الى ما أشيع عن دوريات اسرائيلية في جنوب العراق، على الحدود الاردنية... والأخطر: عن تأهب الجيش

التركي، فور الضربة الاميركية، وفي غمرة «المعمعة»، لدخول المنطقة الكردية (بدون استئذان اميركا طبعاً) وصولاً الى مناطق النفط، مما يضع تركيا في وضع مفاوض قوي تجاه اميركا بالذات، انطلاقاً من أمر واقعٍ يؤهّل تركيا للمطالبة بتقاسم مغانم العراق وأسلابه! ...

أي مغانم العرب أجمعين وأسلابهم، قدّ اسرائيل وأكثر.

●●●

... هنا بالذات وجه الترابط بين الحربين: حرب فلسطين المستمرة، في وحشية متصاعدة، وحرب العراق المتوقّعة التي ستكون على القدر ذاته من الوحشية، انما بأسلحة أمضى وعلى مرتبة من «الرقي الستراتيجي» لم تُعرف من قبل، حتى ولا في أفغانستان ناهيك بعاصفة الصحراء!

وفي الحسابات الاميركية كما يرددها المراقبون الاوروبيون، بواقعية تشاؤمية (ولكنها واقعية!) هذه المفارقات المستغربةً جداً، انما المجهولة النتائج:

أولاً: «لاشعبية صدام» لا تقتصر على الرأي العام العراقي غير المنظور، الذي يقمعه نظام صدام الاستبدادي، بل تمتد الى الدول العربية الحائرة أنظمتها والحائرين حكامها - الذين يكرهون صدام (ولو افاد بعضهم منه نفطاً وتجارة ...) - أي موقف يتخذون ...

فيكتفي الحكام هؤلاء بزيارة بعضهم البعض انقاذاً لمظاهر التضامن، وهم في الواقع (تظن اميركا، ولعلها على حق، ويا للأسف... نكرر: تظن أميركا، ولعلها على حق ويا للأسف، شديد الأسف والأسى!!!) لا يثق واحدهم بأي واحد آخر، وكلهم يدّعي معارضة الحرب على العراق، وفي السرّ يتمناها، ولو بشكل آخر، على طريقته «هو»، لو تستمع اميركا اليه!...

وثمة من يعطي اميركا التسهيلات العسكرية ويدّعي رفضها، وثمة من اذا «اغتصبت» اميركا تسهيلاته العسكرية قال «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»... أملاً في أن يكون الله جلّ جلاله عن الحرب ومترتباتها «غفو لاً»!

ثانياً: الأنظمة العربية ستظلّ مائعة المواقف، «تعطي [العراق] من طرف اللسان حلاوة»... وربما اكتفت برعاية التظاهرات الشعبية التي سيختلط الأمر في شعاراتها وتوجهاتها بين الانتصار لعرفات (الذي تتحفّظ الأنظمة في تمني انتصاره ولكنها تخاف نتائج استشهاده!!!) ضد شارون، وهذا حلال... والغضب لضرب اميركا العراق، وهذا لا يؤثّر فيه التظاهر، فلا بأس.

ثالثاً: تسدد الأنظمة العربية، بدون استثناء، التظاهرات الشعبية (التي لا تزال «ركيكة» بالنسبة الى ما كان منتظراً أو «مستخافاً»!) عبارات التأييد من غير أن تترجم ذلك بأي عمل حاسم. فهي كلها تتردد، بل

تعلن عجزها عن اللجوء الى جيوشها في ردع شارون على نحو كان يستوجب خيالاً في التخطيط الستراتيجي وفي العمل التكتيكي المؤثر ...

رابعاً: تسربُلُ الجيوش العربية تجاه الحرب الاسرائيلية - الفلسطينية يجعل الدول وأنظمتها عاجزة عن توسل وجود هذه الجيوش حتى كورقة ضغط ديبلوماسية تجاه اسرائيل، فكيف بالتلويح بهذا الضغط للتأثير على الموقف الاميركي المتمادي في السكوت عن شارون بل في تأييده، مع «بادرات» رمزية لا اكثر كالاصرار على رفع الحصار عن مكتب ياسر عرفات، ليس اكثر! ...

وهكذا، في الأمم المتحدة (وبنوع أخصّ في مجلس الأمن) ستصاب المجموعة العربية بالشلل «العملي» تغطيه ربما، ربما، بسيل من الانتقادات «باللسان الخشبي اياه» (حتى لا نقول «الكاوتشوكي» اي المطّاط ...) ... الانتقادات التي لا طائل تحتها ولا فوقها ... واذا عجزنا حتى عن التهويل بالجيوش العربية «المظفَّرة» (اوَليست هذه ألفاظنا؟!) حيال اسرائيل، فهل يعقل ان يتوقع منا أحد ان تُحرِّك جيوشنا ساكناً (ولو ديبلوماسياً!) في شأن العراق؟

خامساً: يقول المراقبون، بما لا يخلو من «الخبث»، ان هذه الجيوش أصلاً لم تُبنَ لخوض الحروب، وإن خاضتها فلا تكسب منها انتصارات بقدر ما تجني من العمولات على تسلّحها الباهظ الثمن

بأسلحة لا حاجة بها إليها ولا جدوى منها، وربما لا قدرة على استعمالها...

لا حاجة إليها - يقولون - إلاّ لحماية الأنظمة داخلياً (ومخابراتياً بنوع خاص) واضطهاد من تضطهد الأنظمة، برضى هذا الفريق الدولي أو اكتساباً لرضى ذاك!!!

● ● ●

هل هذا كله «كلام بكلام»؟... بما فيه التساؤلات عن جدوى الانفاق على التسليح مبالغ كان أحرى استعمالها في ترقية شعوب معظمها دون خط الفقر، حتى لا نقول في حال جوعٍ، بدءاً بالعراق وانتهاء بـ... بمن؟... فلنقل بالسودان والصومال، كي لا يتهمنا احد بتحريض الجائعين!

نعم كل ذلك «كلام بكلام»، يجوز فيه، ويجوز في نقيضه ما يجوز في شأن كل كلام... الى أن ينفجر الواقع بما هو أعظم!

والواقع الذي تسكننا جميعنا هواجسُه هو ان يفلت الزمام، فيتجاوز الامر التظاهرات «المسموحة» الى حدود المجهول وغير المعقول (والسوابق التاريخية شواهد!) فتشعل شرارةٌ ما هشيماً عربياً مريعاً.

والشرارة يمكن ان تنطلق عقلانياً من فلسطين، اذا استمرت الأمور تسوء، وقد بدت في الافق خيالات

الشـرارات في تظاهـرات دمـشق الأكـثـر انـضـبـاطاً، بالذات .

كما يمكن ان تنطلق الشرارة «بن لادنياً»، انما ليس في افغانستان كما يهددون، ولا في اميركا، بل في العاصمة العربية الأبعد عن التوقّعات، و«الأعظم» في التوترات ... ولا أحد يقدر أن يعرف ولا أن يتوقّع. فماذا يفعل العرب عندئذ، دولة دولة، وحاكماً حاكماً، وهل يتصرفون فرادى أم يتضامنون؟

●●●

يظلّ الخطر الأكبر خطراً مزدوجاً على الأنظمة إياها، اذا هي لم تتحرك للتضامن لا فلسطينياً ولا عراقياً. .

اذذاك، اذا زلزلت بنا الأرض زلزالها، تفقد الانظمة فائدتها في معارضة اميركا، كما في الولاء لها ... فلا يبقى منها لاميركا جدوى في كلتا الحالين، وقد لا يبقى لها من اميركا كذلك نفع، اذا هي استجارت بها!

فما العمل اذاً؟ ...

ندفع بالجيوش في وجه الغضبات الشعبية لتدجينها، وعند الحاجة قمعها؟

تلك تكون الطامة الكبرى، بل الجنون الأكبر ... ولا حاجة الى تصريح ولا توضيح.

●●●

أملنا الكبير يظل في أن نلملم قوانا ولو ضحلة، في قيادة مسـؤولة مشتركة وبدون كلام، لنكوّن من مجموع ما هو متوافر لدينا حتى في الحقل العسكري، فكيف بالحقل الاقتصادي (وحقول النفط منه ...) مما يعيد إلينا موقعاً دولياً محترماً، او على الاقل كريماً ... موقع يمكّننا من التأثير سلباً، اذا عجزنا عن التأثير ايجاباً ...

كيف لا، ونحن أقل عجزاً كدول مما تظن «الانظمة» ... والشعوب أقل تخاذلاً مما يُظن الحكام المهووسون بالحفاظ على حكمهم ... كأنما ثمة حكم يبقى حين تحترق الأرض، وتتفجّر الناس.

وأول الحكمة أن نحتسب ونتحسّب، فلا يفاجئنا تاريخٌ مكتوبٌ بالنار، ونصير نوقده بخيراتنا واجسادنا!!!

ولا يظنَّنَ منا احد انه هو يبقى اذا زال سواه ... نزول كلنا معاً، او نبقى ممن يتيسّر بقاؤهم، ومعاً.

.... باريس، الاثنين ٣٠ أيلول ٢٠٠٢

امبراطورية للحرب... والأصولية للحكم؟

- ١ -

سؤال كبير بدأ يفرض نفسه، بعد انفجار «بالي» (اندونيسيا) وما قبله الاعتداء الكويتي على الجنود الاميركيين واليمني على ناقلة النفط الفرنسية، وما قبلهما وصول موجة الارهاب (ولو غير اسلامية) الى قناص واشنطن وانفجار متجر في فنلندا، ثم اخيراً الهند وكشمير رداً على الكلام التجديفي من «الاصوليين» المسيحيين الاميركيين...

هل تقدر «حرب جورج دبليو» - رغم موجة الحماسة، بل الحبور، التي بدأت تحيق بها نتيجة تفويض الكونغرس، وعلى افتراض حصولها من مجلس الأمن ولو على تفويض «خَفَر»...

هل تقدر هذه «الحرب» - وكيفَ تقدر وهي لم تنته بعد في افغانستان بنتيجة حاسمة؟ - على الاحاطة المحض جغرافية بكل الجبهات المحتملة، وخصوصاً

في العمق الآسيوي (الفيليبين وغداً ربما ماليزيا وبعد غد، لمَ لا؟ سنغافورة ... فضلاً عن افريقيا التي حتى السِّودان فيها عاد يشتعل؟) ... ثم الاحاطة بجبهات العنف «المَرَضية» والانفصالية التي تتزايد في فرنسا (باريس وكورسيكا) واسبانيا الباسك؟

أم ترانا نكون كلّنا أمام حرب عالمية ثالثة - انما «بالمفصل» وليس «بالجملة» - هي الحرب الكونية الحقيقية، انطلقت من القضية الفلسطينية وتمضي تستدرجنا، عدواناً بعد عدوان، واصولية (منذ الصهيونية) بعد أصولية، مرحلة مرحلة نحو تحويل خرافة «صراع الحضارات» الى صراعات دينية المظهر حضارية الجوهر ... وقد لا يكون لمنطقها المجنون نهاية الا مع ... منطق «نهاية التاريخ» («فوكوياما»)؟

●●●

لا جواب واحد بسيط عن هذا السؤال الكياني المعقَّد التركيب، بل أجوبة متكاملة، والأرجح أن يتوالد من كل جواب سؤال، بل «مسألة» جديدة:

أولاً: الحرب العراقية - التي تتضاءل أهمية جوانبها البترولية رغم حقيقتها - ستقع ولو نتيجة الزخم الذي اكتسبته، ورغم المعارضة العالمية المتزايدة لها ... ولكنها لن تكون حاسمة، وقد تلقى مقاومة شعبية، بل مقاومات نتيجة يقظة الأكراد والشيعة والمترتّبات

الاقليمية على هذه وتلك. وهذا وضع غير قابل للانضباط العسكري، مهما اشتدت قبضته وتعاظم سلاحه.

ثانياً: الأصوليات الدينية ستتزايد، بما فيها اصولية مسيحية معتدلة الشكل، رغم صدور بيان الاستنكار من مجلس الكَنائس العالمي (الذي يمثل الڤاتيكان والارثوذكس والبروتستانتية الاميركية «الرسمية» والانغليكانية). هذه الاصولية ستظل عاقلة التعبير عن شعور تخوّف مقيم، إلا اذا تزايدت الأعمال العدوانية على مسيحيي الهند مثلاً، أو قامت اعتداءات غير منتظرة في افريقيا، السوداء والبيضاء ربما...

وهي اصوليات، بكل انواعها واشكالها، لن تردعها ولن تطمئنها القوة، ولو كانت «مطلقة» الوسائل، ان لسبب فلأن الاصولية الصهيونية تملك تفوقاً مسلحاً غير قابل لردع...

ثالثاً: رغم ما يقال عن مخالفة اميركية (نظرية كوندوليزا رايس)، فان الحكم الوحيد القادر على المحافظة على شيء من الوحدة العراقية ولو موقتة، وشيء من الانضباط الأمني، هو قيام حكومة عسكرية في العراق «في اليوم التالي» لسقوط صدام، وبرئاسة اميركية، تبعاً للنموذج الياباني أو النموذج «التحالفي» في المانيا، ويكون ذلك مرحلة انتقالية تقصر او تطول تبعاً للظروف. مع الاشارة الى ان الحكم العسكري الاميركي في اليابان حافظ على وحدتها، في حين أدى

النموذج المطبق في المانيا الى تقسيمها مدة قاربت نصف قرن.

●●●

رابعاً: فشل الاختبار البلقاني بعد تفكك يوغوسلافيا، فضلاً عن فشل الاختبار القبرصي ناهيك بعودة الوحدة اللبنانية ولو دائمة الاهتزاز بعد حروب الآخرين التي انتهت الى «الطائف»... كل ذلك يجعل كل بحث في انتهاء الاصوليات الدينية الى انشاء كيانات «دولية» بحثاً عقيماً، مع ما رافقه من حروب «أهلية» مصغّرة ومحاولات تبادل سكان دراماتيكية النتائج كما هي الحال خصوصاً في المحاولة الشارونية المجنونة لتهجير الفلسطينيين... وبالتالي فان «الحرب الكارتوغرافية» (والتعبير لوليد الخالدي) أي لعبة إعادة رسم الحدود وحدود جديدة ضمن الحدود هي مدخل مظلم سقيم الى حالات عنف دائمة التفجّر كما هي الحال في الدولة الاسلاميّة الاولى في التاريخ الحديث، باكستان، والصراعات الهندية والكشميرية الدائمة منذ نصف قرن... والحبل على الجرار!

- ٢ -

الى أين من هنا؟

الى تأكيد مبدأ جوهري تاريخي الأبعاد، قيل وتكرر مرّات ويمكن ايجازه كالآتي:

ان «الحرب على الارهاب» يجب ان تكون معالجة في العمق لأزمة «العنف» المجتمعية التي يعانيها العالم وهي تتعاظم من نصف قرن (وكانت بعض ابرز «تباشيرها» في أميركا الجنوبية وفي روسيا ما قبل الثورة البولشفية حيث الحركات العدمية) تتناول التكوين الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لكل مجتمع تبعاً لأحواله وبنوع أخص لتخلفه وفقره (أو تخمته بنتيجة سوء توزيع الثروة وتوظيفها كما عند «عرب الثروة» ولا حاجة الى افصاح) وسوء تربيته الدينية، (نعم سوء تربيته الدينية، ورسوخ طبائع الاستبداد في صلبه ...).

هذه المعالجة «في العمق» لا تتناول الجغرافيا ولا لعبة اعادة رسم حدود الدول ولا حتى حدود الأمم، بل احرى ان تتناول أنظمة الحكم - نعم أنظمة الحكم بل حضاريتها - وقواعدها ومترتباتها التنموية.

وقد افتضح أمر هذه الأزمة العميقة على هامش «صليبية» جورج دبليو وبمعزل عنها - عند نشر تقرير الأمم المتحدة عن حال تخلف «التنمية الانسانية» في العالم العربي التي اظهرتنا في ادنى المستويات على الاطلاق، وفي كل حقل!!!

●●●

هل من رؤية اميركية، او «غربية» بالتحديد، أو «أمم - متحدية» لهذه المعالجة؟ نعم، ولكنها لا تزال تتعثر وهي قيد ما يعرّف بـ«التجربة والاختبار»:

أولاً: الاختبار الديمقراطي الحاصل في باكستان (وقد قاربت حدوده سحر بعاصيري في مقالها السبت ثم دراستها في «نهار» الأحد) الآيل الى «ترك» الاحزاب الاسلامية تنتصر في الانتخابات... . واستطراداً - وهذا هو الجانب المقول همساً وأحياناً كتابةً «بريئة» المظهر في اميركا وبريطانيا الناطقة بلسانها... - ايصال الاحزاب الاصولية الى الحكم عبر انتخابات موجهة عند الحاجة، ثم تركها تجتاز اختباراً شبيهاً بالجمهورية الاسلامية في ايران.

هذه النظرية الاميركية - وكأنها ظاهرة التحدي، تزداد رجحاناً بين النظريات المتداولة حول «اليوم التالي» - تفترض ضمناً ان ممارسة مسؤوليات الحكم هي الطريقة الوحيدة لوقف المهاجمات الاصولية ضد الغرب ولاقناع الاصوليين باستحالة نجاح «الجمهورية الاسلامية» في دنيا الطموح المحتوم الى الحداثة والتحديث، وخصوصاً في حقل التنمية الاقتصادية والتنمية الانسانية عموماً، بما في ذلك التكنولوجيا والذرة وعلوم الفضاء. وهذا الأمر سيولّد تحولاً «اصلاحياً» مماثلاً لحكم الرئيس خاتمي لن يلبث ان يبلغ - مع الزمن ولو طال واذا استقر - حالاً تمكّن الجمهوريات الاسلامية العتيدة من «التعولم» في

علاقاتها الدولية وربما، ربما ابتكار حالة انسجام مع الامبراطورية الاميركية.

ثانياً: الرجوع الى نظرية «شستر بولز» في الخمسينات القائلة بأن الأنظمة «العسكريتارية» هي البديل من الديمقراطية المدنية - الفاسدة الحكم حتماً - في مجتمعات «العالم الثالث»...

شرط الرجوع الى هذه «الفلسفة»، رغم فشل اختبارها الأبرز في العراق وتركيا السابقة لعودة المدنيين، ومصر وسوريا (باستثناء الجانب الاستقراري الأمني الغالي الثمن جداً، جداً!) هو حصر الدور العسكري في الرعاية الأمنية للحكم الاصولي، بغية منع الحروب الخارجية (باعتبار ان الحروب الداخلية ستتوقف تلقائياً نتيجة وصول الاصولية الى الحكم، اذا لم يقاومها العسكر كما في مذابح الجزائر) ومنع الفساد الذي غرقت فيه بعض العسكريتاريات، فضلاً عن ثبات عجزها، كما في سوريا، عن تأمين انماء اقتصادي في حجم الثروات الوطنية الدفينة.

وغني عن القول ان العسكريتاريات، بما فيها نظام عبد الناصر، لم تنتصر في الحروب التي اضطرت الى خوضها، ولم تنجح عقائدياتها المرتجلة في تأمين قيام مجتمعات مدنية راقية ومتميزة وخلاّقة، وذلك نتيجة قمعها للحريات العامة، من السياسة الى الاعلام الى التربية والثقافة، وسيرها بالتالي لا في مسالك التهيئة الديمقراطية بل في المسالك المتعارضة معها... مما

ولّد - وهنا المفارقة - الاصوليات الدينية كبديل.

فهل يمكن «الحرب» على الارهاب، في ما يشبه المعجزة، «تزويج» الأمر وعكسه في حكمٍ واحد؟ أي عسكريتاريا أمنية فقط، واصولية تسيرً في طريق الانفتاح والتحديث والتنمية؟

تلك تكون المعجزة.

●●●

ثالثاً: تشجيع «فيديراليات» اصولية، بين المجموعات المهيأة للتفجر نتيجة الاصولية السنية او الاستئثار السني بحكم الأكثرية. وهذه الصورة تنعكس بادئ ذي بدء في قيام الحكم الذاتي الكردي (الاصولي العرقي) والذي تحقق واقعياً، ثم في حكم شيعي ذاتي، نتيجة الديمقراطية الديموغرافية. وينسحب هذا المبدأ على اليمن المضطربة وحدتها الآن، وصولاً الى ما يكثر الهمس في شأنه وكلما تناولته صحافة سارع من ينفي رواياتها: المملكة السعودية، التي «يروق» نفطها ان «تتحرر» المنطقة الشرقية الشيعية من الملكية المبطنّة بالوهابية.

رابعاً: ترسيخ «الحكم الاميري» حيث استقر على ترقية وعمران ومناخ حرية (وقد وصف المطران جورج خضر في افتتاحية يوم السبت في «النهار» وضع دبي وأبو ظبي بـ«المعجزة التاريخية» حيث «الانسان

المعاصر استطاع ان ينتقل من البداوة الى الحضارة حسب المصطلح الذي استعمله ابن خلدون بمرونة عقلية اختصرت عبور القرون التي تتحدث عنها بعض السفسطات المتداولة» .) او حيث تعايش ، كما في قطر ، وبرعاية اميركية ، تصنيع الغاز مع الاعلام و ... الانفتاح المستتر على اسرائيل - وهذا ما لا تأنفه اميركا ، بل العكس ! ! !

إلا أن هذا المسلك زعزعته الظاهرة «الارهابية» في الكويت التي كان يُفترض فيها ان تكون الأكثر «مناعة» نتيجة «تحرير عاصفة الصحراء» لها من الاجتياح الصدامي قبل عشر سنين .

- ٣ -

... والآن ، اذا صدقت هذه «التوقّعات» او الحسابات والتوجهات ، فماذا عن مصر ، الدولة العربية الأقرب الى أميركا؟

وماذا خصوصاً عن لبنان ، الدولة التي تتزايد مفارقاتها لا نتيجة تكوينها المتعدد الاديان والطوائف فحسب ، بل نتيجة الوجود الفلسطيني الكثيف الحضور (والتسلح) فيها ، وارتباطها العضوي المتزايد بالجمهورية «الشعبية» (و«الوراثية») سوريا ، المستترة التعددية الدينية والطائفية؟

وماذا أخيراً عن الأردن ، ذي الدور الهاشمي غير

المهدور بعد في العراق، والذي «يطمح» شارون لتحويله الى الدولة الفلسطينية البديلة؟

ثم، ثم... ماذا عن فلسطين عرفات، بل فلسطين القدس، «قدس الاقداس» وفلسطين الفلسطينيين؟

تلك هي «الاسئلة - العقد» التي لا حلول «سلفية» لها (نسبة الى سلفية اميركا المستحدثة!). لا طموح لدينا في هذا المقام الى توسم سيناريوات «نهاية العالم» لها. حسبنا تساؤل وليد الخالدي في محاضرته في لندن (٨ تشرين الأول، عند منحه جائزة «الكسو» الجامعة العربية) عما اذا لم يكن تلاقي الاصولية المسيحية الاميركية مع الصهيونية دليلاً على كون مخططات شارون وعقيدة جورج دبليو بوش «وجهين لعملة واحدة!»... وطريقاً موحداً الى تطبيق «خرافة صراع الحضارات»!

●●●

اذا كان الأمر كذلك، ولعله كذلك لأن الرئيس بوش رفض تحدي كبرى الصحف الاميركية الـ«واشنطن بوست» بالتبرؤ «صراحة وعلناً» من دعاة الاصولية المسيحية (وقد عددت اسماءهم: فالويل، روبرتسون، غراهام، الخ...) حتى لا تستمر نسبتهم الذاتية للرئيس دليلاً على صحة الامر...

اذا كان الأمر كذلك، فقد لا يجدينا نفعاً ولا رمزيةً

وجود صورة احد اجداد الوليد، الشيخ محمد علي الخالدي الذي تمرّد، يوم كان بمثابة والي القدس، على تعليمات السلطان بقتل بطريرك الارثوذكس وكل المطارنة، فتولى حمايتهم في كهف قرب «باب العمود»... وجود صورته في دار البطريركية الارثوذكسية في القدس، وقد استحقها تذكاراً، واستمرت اعجوبة الوحدة الوطنية العميقة النادرة بين المسلمين والمسيحيين في مدينة الله اورشليم حتى اليوم!

- ٤ -

كلمة أخيرة عن لبنان، الذي اكتشف شارون، بعد ارتكابه مجزرة صبرا وشاتيلا بمشاركة من شاركه (ويا للعار علينا!!!)، انه وطن غير قابل للتحوّل الى ساحة «حرب أهلية» من جديد في غياب من يموِّل تسليح المتحاربين العتيدين... فوحدته اذاً امينة رغم الاصوليات العاصفة به سطحياً!

كلمة أخيرة عن لبنان، نقول،

ليس ضخّ مياه الوزاني، قليلاً أو كثيراً، هو الذي سيكون «ذريعة» حرب اسرائيلية علينا، تنساب منها اسرائيل الى دور الشريّك الذي تطمع به في «حرب الارهاب على العراق»...

الذريعة تكون ما بدأ التحدّث الاسرائيلي عنه، وكأنه

تحريض للجاهلية المقيمة في لبنان حتى تقع في الفخ :

ان ثمة تخطيطاً لفتح حزب الله والمقاومة الفلسطينية «جبهة ثانية» تساند الانتفاضة الفلسطينية عبر الحدود اللبنانية ! ! !

ذاك يكون الفخ الذي تهوّل به اسرائيل على نفسها وعلينا ! ...

فهل من حاجة الى دعوة دولتنا السنية، بالرغم من انشغالاتها المهرجانية، لأن تثبت، ولو مرة واحدة، انها «دولة الأمن» حقاً وفعلياً، فعلاً، فتمنع، نعم تمنع مثل هذه الصبيانيات التي لا طموح لاسرائيل الى أكثر منها حتى تجتاح لبنان وعبره سوريا (رغم ظنها انها دفعت «ضريبة» استقرارها، فكفاها الله الاميركي شر الحساب!) و ... يُشارك هكذا شارون اميركا جورج دبليو في حربها المجنونة لتفجير المنطقة؟ ...

اذذاك، لن يكفي الله المؤمنين شر القتال! ! !

.... لندن، الاثنين ١٤ تشرين الأول ٢٠٠٢

رسالة الى صدام حسين: الاستقالة أشرف!

يا أيها الرئيس،

لم يتظاهر خمسمئة ألف عربي في أية «فلورنسا» في عالمنا العربي التعيس! ...

فهل توقفت لحظة لتتساءل لماذا؟

لأن الخمسمئة الف الذين يمكن ان يطمحوا الى ربيع عربي كلهم في السجون، سجونك وبقية الأنظمة التي تهافتت لانقاذك - أو هكذا تدّعي - من حرب لا نزال نظنّ انها معلّقة ...

فلا تصدّق، وتذكّر الساعة الأخيرة قبل «عاصفة الصحراء» السابقة، يوم حاول الاتحاد السوفياتي - بما كان لا يزال له من وزن - اقناع «بوش الأب» (وشتّان بين الرجلين) بأنك وافقت على «الشروط» (وشتّان بين تلك وشروط اليوم) فقيل له: «كلا، تأخرت»... مع أن الساعة الرابعة والعشرين لم تكن قد دقّت بعد!

وصار الذي صار... ولم يتعلم احد درساً من أحد،

فلماذا تستغرب الآن وتتهم هذا وذاك بأنه «بروتوس»، أي الصديق الذي طعن قيصر. يا ليتك تقرأ رثاء الصديق لقيصر في تلك التراجيديا، لكنت فهمت ما هو حاصل حقاً، وبين العواصم العربية بالذات... ولماذا هذا الكلام كله لا يحتمل في العمق سوى قراءة واحدة: ذهابك صار لا بد منه، والسباق الآن بين الصيادين على مَن يبيع مَن (واعذرنا للمقارنة الوقحة) «جلد الدب» قبل صيده.

●●●

فيا سيادة الرئيس، قد لا تريد أو لا تقدر ان تغالب نفسك وتشكر الشقيقة سوريا على ما قامت به وفي ظنّها انها اقنعت «المجتمع الدولي»(!) بأنها قادرة على اقناعك بالقبول بشروط مجلس الأمن، فاقنع هذا «المجتمع» بدوره اميركا بالاقلاع عن اجتياح وطنك الذي كان يوماً - ولكن بعيداً بعيداً!!! - فخر العرب ومحط آمالهم.

وزراء الخارجية العرب كلهم تهافتوا على شكر سوريا، ونحن كذلك نشكرها لأنها جعلت - على ما قالت - العفو عنك ثمن اقتراعها بالموافقة على قرار الحرب، انما «المعلّقة».

ولكن، من نصدّق؟

ألم تقرأ التعليقات - الاميركية بالذات - القائلة

حرفياً «ان الولايات المتحدة الاميركية نجحت من طريق ضغوطها ومقايضاتها [«مقايضاتها»، هل فهمت، سيادة الرئيس؟] في نيل ما تريده في مجلس الأمن (...) واشنطن لجأت الى اسلوب الاقناع والضغط والمقايضة (...) الصين على سبيل المثال سمحت بإمرار القرار بعد الموافقة على اعتبارها لاعباً قوياً في تسيير القضايا الدولية، بينما كان الموقف بالنسبة الى روسيا وفرنسا هو التأكيد لهما ان اي حكومة جديدة في العراق ستكون ملتزمة تنفيذ عقود النفط الموقعة فعلاً مع الحكومة العراقية الحالية». (انتهى التعليق!).

اقرأ، اقرأ، يا سيادة الرئيس، اقرأ تفهم: «عقود النفط الموقعة فعلاً الخ...» ثم: «اسلوب الاقناع والضغط والمقايضة...» اقرأ، اقرأ!

●●●

سيادة الرئيس،

أتريد كلمة واضحة صريحة؟

بقاؤك في الحكم لا يجدي، ولن يجدي قبولك بالشروط «الهمايونية» (اي السلطانية، بلغة الامبراطورية العثمانية السعيدة الذكر!) التي «فرضها» مجلس الأمن، حتى لو كانت ثمة كفالة سورية – عربية انك ستوافق عليها.

وحسب المثل العامي السابق: «زرزور كفل

عصفوراً» ... وأنت اليوم عصفور جريح على غصن شجرة يجري قطعها، فالمطلوب انقاذ الشجرة، لا الغصن ولا العصفور، على افتراض ان «الزرزور» يقدر على الانقاذ!!!

المطلوب انقاذ ارض العراق وشعبه، والبقية الباقية من كرامته وحرياته وطموحاته لأن يكون اكثر من سلعة تجري «المقايضة» عليها، و«عقود نفط» يجري توزيعها مغانم حرب مؤجلة وأسلاب حشد عسكري وديبلوماسي اين منه قدرات العرب الراجفين خوفاً على انظمتهم، لا على نظامك.

●●●

ماذا نطلب منك يا سيادة الرئيس،

نطلب منك ما لا يتجرأ زملاؤك «البروتوسيون» وأضرابهم على طلبه: ان تستقيل!

نعم تستقيل من الحكم.

طبعاً، ليس هكذا ببساطة، كمن يهرب او ينتحر، اذ حتى الانتحار كما فعل احد كبراء تاريخ الديكتاتورية لم يعد ينفع ... فلا يزيّننّ لك احد ان ذلك يكون أفضل من «اغتيال قيصر»!!!

وما دمنا في تاريخ القياصرة، فإياك ان يزيّن لك أحد آخر ان في وسعك ان تكون «نَيرون» يحرق روما.

كانت المجازفة تستحق ان تحاولها لو كان في

وسعك ان تحارب من غير ان يؤدي ذلك الى حريق العالم العربي الذي سيقع في كارثة مثلثة الأبعاد:

حرب عسكرية غير متكافئة القوى، حتى على افتراض انك تملك سلاحاً نووياً سرياً، ثابت انهم يملكون أفعل منه...

وحرب بين الحكام العاجزين عن نجدتك وبين شعوبهم الغاضبة التي ستقع فريسة مئة ارهاب وارهاب مجهول الهوية معروف الضحايا...

واخيراً وليس آخراً: حرب اسرائيلية يشنها الوحش شارون على كل الجبهات، ولو للتخلص من معارضة «شريكه» نتنياهو، ومن الحليف الموضوعي لهذا وذاك – اذذاك – الرئيس المتخبط في خيوط العنكبوت، ببقية من بطولة لم تعد تجديه نفعاً، ياسر عرفات.

•••

فلسطين، فلسطين...

بعض ما يوجب استقالتك، يا سيادة الرئيس صدّام، انه يوم كان في وسعك ان تحارب في فلسطين – وبأسلحة لم يكن مجلس أمن المجتمع الدولي قد وضع يده عليها بعد – آثرت الدّخول مع ايران في حرب عبثية من أجل انتصار وهمي خدم اعداءك وأعداءها...

ثم، ثم، قبل ان تفيق من النصر، بادرت الى اجتياح الكويت، وفي ذلك ما فيه من الخروج على التضامن

العربي، فضلاً عن الخسائر الجسيمة التي تسببت بها للكويت وللشعب العراقي والجيش العراقي، وانتهى بك الأمر الى استدراج اميركا (ولعل ذلك كان القصد من اللعبة حتى لا نقول المؤامرة!) الى «الاقامة» في المنطقة اقامة «امبراطورية» ومأجورة من الثروات العربية التي تكاد تفلس الدول المؤتمنة عليها!!!

أوَليس ذلك كله فشلاً، بل مأساة وهزائم تستحق تبديل الاحكام؟

العجيب انك لم تستقل قبل اليوم!

ولا يغرّنك، يا سيادة الرئيس، ان استفتاءً ممسخراً قمت به، منحك مئة في المئة من التأييد...

●●●

لو كان في العراق أي قدر من الديمقراطية لطالبك الشعب بالاستقالة لأنك تسببت لا بالهزائم فحسب، ولا لأنك تخلّفت عن توظيف قوة العراق المهولة في حرب فلسطين، بل لأنك تسببت بالجوع والفقر والجهالة، بينما القصور تشاد لك والسجون تتكاثر (بدليل افراجك اخيراً عن آلاف كان حتى وجودها مكتوماً...) فلا تكاد تقفل سجناً حتى تفتح سواه!

في حد ذاته، العجز عن منع تجويع العراق ومنع افقاره - وهو من يتهافت العالم اليوم على اقتسام خيراته! - كان يستحق الثورة... فضلاً عن ان الحكم

الصالح الذكي لا يقع في حبائل المجوِّعين، بل عليه ان ينتصر عليهم بمنع ذرائع الحصار بدل استدراجه!

●●●

فيا سيادة الرئيس،

ليس استسلاماً للغطرسة الاميركية ان تستقيل، بل العكس هو الصحيح.

عنادك في البقاء، حتى لو قبلت «الشروط»، بل خصوصاً اذا قبلتها، لأن وراء الشروط شروطاً ثم شروطاً... - عنادك في البقاء هو تسليمنا - نحن وأنت والعراق والانظمة العربية والشعوب كلها، بما فيها التي لا تزال معك - الى غطرسة قد لا تكون حرباً فورية ولكنها ولا ريب زلازل بالتقّسيط، تليها «معاهدات سلام» للحروب التي لم تبق حاجة الى خوضها!

ومن يدري، فقد تستدرجنا اسرائيل - وتستدرج معنا اميركا - الى خوض هذه الحروب في ساعة العجز القصوى بمحاولة اقتناص الفرصة للانقضاض علينا، وتحميلنا مسؤولية الحرب، والهزيمة!

●●●

لا تزال امام العرب، يا سيادة الرئيس الصدّام، فرصة لشراء فترة من السلام بتوظيف استقالتك في مبادرة

تاريخية يُختتم بها عهدك بدون دمار وحمامات دماء واحتلالات ولو مقنّعة.

مبادرة يعود بها العرب الى الواجهة.

نعم، يقلب العرب الطاولة على اميركا واسرائيل من ورائها، بتقديمهم هم - بموافقتك طبعاً - استقالتك.

وبدل ان يكونوا مجرد مغانم واسلاب في لعبة «المقايضة الدولية» التي يتفرّجون عليها ويعلّلون النفس بأنهم كانوا أسيادها، يلجون اللعبة الدولية وفي يدهم الورقة الاخيرة التي تُسقط ذرائع الحرب!!!

نعم، «حظّ الساعة الاخيرة» ليس في ان يراوغ أحد منا حول قبول شروط ورفض شروط، بل ان تُسلّم الحكم، انت والعرب، الى نظام عراقي جديد يقوم برعاية عربية، بدل ان يكون النظام المقبل وليد حكم عسكري اميركي للعراق الممزق.

وتستعيد للعرب، يا أيها الرئيس، البعض من كرامتهم التي تسبّبت بهدرها، قبل ان يهدر بقيتها سائر الحكام، وعلى رؤوسهم طير ليس نسراً، ولو بالنّسور تنكّروا!

........................الاثنين ١١ تشرين الثاني ٢٠٠٢

١٢٠٠٠ صفحة:

رسالة سلام أم مسرحية لحرب؟

المعذرة من القراء الفضوليين اذا لم نتوقف طويلاً عند «ازمة» الخليوي، بعدما اكتشفت الدولة ان كلها متفق مع الكل رغم زج «وزيِّر» التلفون نفسه في مأزق كاد يهدد احتضان فرنسا والعالم لأزمة لبنان المالية (تُرى، هل كان هذا هو المقصود، هل كانت باريس-٢ هي الهدف، والوزير لم يدرك؟ ...) ... فالحمد لله على سلامة من سلم، ونكتفي.

●●●

والآن، ماذا عن الامور الجدية؟

نرانا امام مسرح، مداه الشرق الاوسط والاقصى، يأخذ فيه اللاعبون مواقعهم قبل ان ينطلق التمثيل:

١. في زاوية اقصى اليسار، بنغلادش تتهم «القاعدة» (ثم تنفي) بتفجيرات قاعات سينما، في

العيد، اوقعت بضعة عشر قتيلاً ومئات الجرحى... ولم يتنبّه أحد!

٢. في الجهة اليمنى للمسرح، ادنى قليلاً، فلسطينيون تعتقلهم «السلطة» وتتهمهم بانتحال صفة ناشطين من «القاعدة» (اياها!)، بتدبير من «الموساد» الاسرائيلي، للقيام بعمليات «ارهابية» تستدرج تدخلاً اسرائيلياً «ارهابياً مضاداً» (ارهاب الدولة وجيشها) بينما شارون يستبق الامور ويحذّر - ويتوعد - من قيام «القاعدة» متحالفة مع «الاسلاميين» بعمليات ارهابية سيكون الرد عليها ضارياً...

٣. في وسط المسرح، انما ببعد قليل المجال عن الواجهة، خبراء الأمم المتحدة يتسلّمون تقرير العراق (١٢٠٠٠ صفحة مع اشرطة وأسطوانات وبيانات وصور) عن سلاحه وخطط التسليح، ويتهيأون لحمله الى مجلس الأمن... و«نيّال يللي بيقرا وبيفهم!».

٤. في وسط المسرح، فجأة، ومتقدم جداً، خطاب من الرئيس صدام حسين، انما يكلف وزيره تلاوته، موجه الى الكويتيين «يعتذر الى الله» لما اصابهم منه (من صدام، لا من الله) ثم يحرّضهم على التصدي للاحتلال الاجنبي لأرضهم... فتنبري، فوراً، سلطات الكويت (لا شعبه) مرتبكة بين الرفض والأسف و... الاستزادة!

٥. من موقعه الدائم في وسط المسرح المتقدم، يكرر الرئيس جورج (دبليو) بوش ان في حوزته ادلة

على التسلح العراقي وكأنه يقول، مداورة وقبل الاستماع الى الصدّام، انه سلفاً لا يصدّق الاثني عشر الف صفحة وملحقاتها وربما لن يكلف نفسه عناء قراءتها ... وانه ماض في تصميمه. الى أين؟ «مين بيعرف، مين بيقول»؟!

٦ . يغمر المسرح، من كل صوب، صخب الاساطيل وعشرات آلاف العسكر الاميركيين، وتكتكة المناورات الالكترونية ... وكأنما هي مجموعة، بل «فرقة ممثلين» يحرّكهم سيناريو آخر، لا مكان فيه لا للمهارة العراقية المفاجئة، بل لا مكان فيه لأي دور لصدّام يتذاكى، بالكثير من الدهاء، فيحاول «قلب الطاولة» (المثقلة بـ١٢٠٠٠ صفحة من الوثائق والشروح والبراهين) على سائر اللاعبين و«خربطة» السيناريوات المسبقة.

٧ . فجأة، من خارج المسرح، يُسمع صوت الروسيا يرحّب بتقرير صدام حسين ويهنئه، بشيء من الابهام.

٨ . لم يظهر على المسرح بعد لا الوزير الأول طوني بلير ولا الرئيس جاك شيراك ولا الممثل الذي تعلّم التحفظ المستشار الالماني شرودر.

٩ . لم يُسمع بعد أي تسجيل بصوت بن لادن، لا مزعوماً ولا غير مزعوم!

١٠ . لم يُسمع بعد أي «رد فعل» او تعليق او اعلان قرار (غالباً ما كان سيكون بالصوت الخشبي) من قبل

الجامعة العربية أو أية من قممها... سوى الصوت اللبناني المتوجه، تقليدياً، الى شارون متهماً ومحذراً... مماذا؟ ... «غير مهم»؟

●●●

عندما يرتفع الستار عن المسرح، ماذا ترانا نشاهد في غد قريب او بعيد، بل بالاحرى ماذا نتوقع، وماذا نتمنى؟

ليس في وسعنا ان نتمنى شيئاً خارج اطار حدودنا اللبنانية التي يزداد تضييقها، كلما ازداد ولو قليلاً تفاؤل اللبنانيين وتكاثرت، ولو قليلاً، مؤشرات الفرج... كأنما ثمة لاعب أكبر، غير منظور (غير منظور، ولو؟ وغير معروف؟ ...) يرخي قبضته قليلاً ثم لا يلبث ان يشدّها على الخناق!

ومع ذلك، نحيّي الرئيس لحود الذي لم يفتح صمّامات قلبه «المغسول» لانسياب المياه الآسنة، من أين أتت وكيفما قطّروها!!! ولا نخاله يجهل ان عليه ابقاء عينه ساهرة على «الحدود الجنوبية» حيث قد يفاجئ شارون كل اللاعبين بمناورة، في زي عدوان، [ولعل طليعتها ما حدث امس الاحد]، نحن نصفها بالمناورة الانتخابية ولكنها تكون في الواقع بداية لعبة كبيرة تستهدف احباط تبرئة العراق لنفسه... وذلك باستعجال القرار الاميركي الكامن في صدر بوش لشن

الحرب قبل ان تبرد همم الاساطيل والعسكر وتذوب الحماسة (الامبراطورية) لدى «رأي عامه» للانتقام من الارهاب ... ولو اختلطت اشباح زعامات الارهاب، بين بن لادن مجهول محل الاقامة، وعراق يستعيد دور المبادرة، وً ... حزب الله «قامته لبّيسة» ويطرب سلفاً لاستشهاده نيابة عن سواه!!!

●●●

ولا يفوتنا ان نهنّئ الرئيس الحريري الذي آثر عدم الاشتراك في مؤتمر مغربي لانماء الديمقراطية في العالم العربي («مش وقتّها»، الديمقراطية) فيبقى حارس المرمى في ملعبه حتى يحول دون اصابته بـ... بماذا؟ بشائعات عزمه على الاستقالة! ...

ولو فعل، أي لو استقال او يستقيل، لصار كمثل اللاعب الذي يحمل الملعب وقواعد اللعبة ويخرج بها وسط صفير المتفرجين المحبَطين! ...

فأين «الروح الرياضية»؟ ... ولو! لعلها بداية الديمقراطية التي كان سيحاضر عنها الحريري، لو سافر ...

براڤو الحريري على الصمود في الملعب و«المعنى في قلب» ... الفريق الآخر!

●●●

نعود من الملعب اللبناني الى حديث المسرح الاقليمي الأوسع. ماذا نتوقع؟

اكثر ما نخشاه – وهي مجرد خشية وتخوّف – ان «يضيق صدر» الرئيس بوش بازمات اميركا الاقتصادية التي لن يكفي حلاً لها اقالة وزير الخزانة پول أونيل والمستشار الاقتصادي للبيت الابيض لورنس ليندسكي (عقبال سائر المستشارين!)... . واذذاك، متى ضاق صدره، قد يعمد الرئيس «الامبراطوري» الى تجاوز مجلس الأمن وهو غارق في قراءة الـ ١٢٠٠٠ صفحة ومناقشتها، فيستعجل تنفيذ قرار الحرب، و«زلزلة» الشرق الاوسط بكليته وفق ما كان «مكتوباً» ووفق مشاريع الخرائط التي يتكاثر تجوالها في الاروقة ووسائل الاعلام...

من غير ما حاجة الى سبب مفتعل من شارون، انما بسبب من افتعال حادث «ارهابي» (في الكويت مثلاً او ربما قطر) يجيء كأنه «تجاوب» مع كلام الرئيس الصدّام الذي سيوصف بالتحريضي، وما اسهل الوصف.

[ولن ينتظر بوش كذلك – هذا بين هلالين – انتهاء محادثات البارزاني في ايران (المضطربة بالتظاهرات) في شأن «عراق ما بعد صدام حسين» حتى يستكمل «خريطة التقسيم والتقاسم» التي انكر دونالد رامسفيلد وجودها او الرغبة فيها...].

●●●

ماذا يحدث اذذاك؟

تنفتح الابواب مشرعة أمام كل الاحتمالات، وتتداخل كل الحسابات والقرارات المتضاربة، بما فيها موقف الرئيس الروسي (الذي يدغدغه ربما الحنين الى حرب باردة، انما باردة جداً، بعد التقارب مع الصين ...) وخصوصاً المواقف الاوروبية ... وصولاً الى تركيا الاسلامية (التي لم يمنعها نظامها، شأن نيجيريا، من انجاب ملكة جمال للعالم!) واشتعال حرائق النار التحت الرماد في افّغانستان بالذات، وباكستان، وصولاً الى كراتشي و«بالي» مجدداً، لم لا؟

ويكون «سحر» صدام حسين قد انقلب عليه ...

إلا اذا ... إلا اذا كان الرئيس العراقي قد «بطّن» محاولة استراقه المبادرة بسر كبير مع اميركا أبعد مما يمكن ان يدركه المراقبون (وّالمفتشون خصوصاً): مثلاً، مشروع اتفاق يظل ممكناً «كيسينجرياً» مع واشنطن ... كمثل ماّ ينطلق من القول الذي نسب الى الرئيس رفسنجاني الاسبوع الماضي: لماذا نختلف مع اميركا؟ نحن عندنا نفط نريد ان نبيعه، واميركا تريد ان تشتري النفط، فلماذا لا نتفق؟

وهل مستحيل ان تتفق اميركا حتى مع عراق صدّام على اشياء كثيرة اذا انطلق الاتفاق من النفط، فلا تجازف هي بأرواح جنودها، بل تبقيهم «متأهبين» في المنطقة، هم والاساطيل والصواريخ، الى ما لا نهاية

منظورة له. وتنصرف الى معالجة ما يمكن ان يتدفق في الخليج والجزيرة العربية من «غليان»... على نارٍ صدامية، انما بدون صدام يوقدها؟!

اذذاك، ينقذ رأسه كل مَن مثل سوريا ومصر، يحصِّن النفس ضد... الغليان الشعبي وسائر العقائديات!

ويتنفّس الخائفون الصعداء لأن الحرب لم تقع، ولا ظل المحاربون على سيوفهم المصلتة فوق الرؤوس... الى ان «يخلق الله ما لا تعلمون». لماذا العجلة؟

... وتستمر المسرحية ولو تغيّر اللاعبون!

.... الاثنين ٩ كانون الأول ٢٠٠٢

ديمقراطية پاول... أم ديمقراطية الأحرار؟

لم يترك المحللون «متردماً» لم يقولوه في الدعوة التي اطلقها، بصدق «بديهي»، وزير خارجية اميركا كولن پاول الى قيام شراكة بين بلاده العملاقة والعالم العربي (رأسمالها، نعم، ٢٩ مليون دولار، «فقط لا غير» بالتعبير الدارج) من أجل السير بنا في معارج الديمقراطية ... فما أرخصها الديمقراطية، اذا كانت هذه كلفتها!!!

بكل احترام للمستر پاول - احترام لعقل القائد العسكري الكبير، اذاً لواقعية الرجل... - نقول له بصراحة نحاول ان نجعلها بدورنا عقلانية اننا كنا نكون أكثر انفتاحاً لدعوته، ولقدرة شعوبنا على التجاوب معها، لو طالعتنا الصحف امس أو اليوم أو غداً بصورة تظاهرة مليون عراقي في شوارع بغداد كتظاهرة المليون مواطن (يرافقهم ضباط متمردون) في ڤنزويلا ... بدل صورة «الصالوناتيين» الذين جمعتهم واشنطن في فندق

فخم في لندن، بعد طول عناء، وزيّنتهم بعدد من الضباط المتقاعدين او المنفيين، و«عمّدتهم» معارضة وطنية جامعة تريد تغيير نظام صدام حسين لاقامة نظام ديمقراطي فيديرالي بديلاً منه ... وتطلب مؤازرة اميركا المحتشدة جيوشها حول العراق، منتظرة هذا الطلب، أياً يكن مصير تقرير الـ١٢٠٠٠ صفحة الذي نقلته «لجنة المفتشين» الى مجلس الأمن!

فعلى مَن تضحك اميركا؟

•••

كنا نضحك منها لو لم يسبق كلامها الوزيري كلام مسؤول كبير في الوزارة اياها، ريتشارد هاس، يقول ان «على الولايات المتحدة احترام الخيارات الديمقراطية للشعوب حتى ان لم تعجبها».

نعم يا مستر پاول، ليس بالتسعة والعشرين مليوناً التي رصدتها حكومتك لانعاش مؤسسات المجتمع المدني، بما فيها حركات الدفاع عن حقوق الانسان (وخصوصاً الانسان السجين ولا يعرف لماذا وحتّام!!!) بل باحترام حقوق هذه الشعوب واحترام عقول قادتها المنبثقين من طموحات الناس وعذاباتها وحتى من يأسها بعد محاولة تدجينها بالاستبداد ... استبداد الانظمة التي، مثلاً، مثلاً، تصفّقون لها وتغدقون عليها شهادات حسن السلوك كلما «تعاونت

معكم تعاوناً بنّاءً في الأمور الأمنية» ...

و«الأمور الأمنية» هذه هي بالذات مظهر من مظاهر الاستبداد و«الديمقراطية المخابراتية» التي تئنّ الشعوب تحت نيرها، وتطالب أميركا بعدم مبادلة «تعاونها» في «مكافحة الارهاب» باطلاق يدها في ارهاب شعوبها، بل الدول التوّاقة الى التحرر والاستقلال.

●●●

تعرف، يا مستر پاول؟

كان يجب ان تطلب من الدول التي تصفّق لتعاونها معكم عربوناً واحداً صارخاً على انتقالها من طبائع الاستبداد الى ما سنصفه بـ«الاحتمال الديمقراطي»، مجرد الاحتمال ... أي احتمالها النقد والمعارضة والاختلاف.

أي عربون؟ أية مبادرة؟

بدل تسليمكم (وتسليم اصدقائكم اللاديمقراطيين، بالتحايل والمواربة) هذا او ذاك من «الارهابيين» المناضلين بالعنف الثوري ... بدل تسليمكم هؤلاء لينتهوا في غياهب جزيرة «كوبية» منسية، مثلاً، أو في سجن «صديق» لكم ينتظرون فيه حكم اعدام كان «مكتوباً» سلفاً ...

بدل ذلك، كنا ننتظر منك، يا مستر پاول، ان تشفع الشكر على «التعاون الأمني» بدعوة صارخة لهذه الدول

الحديثة (؟) الصداقة معكم الى فتح أبواب السجون السياسية واطلاق المعتقلين، ثم فتح ابواب المستشفيات لمعاينتهم من آثار التعذيب ثم... اهدائكم آلات التعذيب هذه لتحتل مقامها، لا في جزيرة غوانتانامو، بل في متحف لتاريخ الديمقراطية، والصراع من أجل حقوق الانسان.

اذذاك ربما أرسلنا لكم كذلك صور الاربعين شهيداً الذين علّق الاستبداد العثماني مشانقهم في بيروت ودمشق لأنّهم ناضلوا من اجل الحرية والاستقلال، اي الديمقراطية، واستمر النضال من بعدهم ولا خوف ولا وجل!

•••

والأهم من ذلك بكثير كثير: كنا ننتظر منك، انت بالذات وقد وظّفت في مساعي السلام العربي الاسرائيلي حداً جعل بقاءك في الحكم مجازفة نهنئك على اجتيازها...

كنا ننتظر منك، بدل تكرار الكلام «الخشبي» الرتيب عن التزام اميركا التوصل الى سلام بين اسرائيل وفلسطين - أي بين الجلاد والضحية - أن تتجرأ وتفضح «الديمقراطية» الاسرائيلية بمثل ما تفضحها المؤسسات الاسرائيلية الحرة والصحافة الاسرائيلية بالذات... وليس أقل ما تناولته هذه اهميةً أخبار الرشى

التي تقاضاها قياديو الحزب الحاكم ليتبنوا في الانتخابات النيابية ترشيحات مشبوهة فاسدة، منها ترشيح نجل «رجل السلام» عندكم المجرم ارييل شارون... وهي آية التشبّه بعربٍ ننتقد ديمقراطيتهم وتنتقدون!!!

هذا ادنى الفساد، اذا ما قيس بلجوء شارون الى تحويل كل قرية اسرائيلية الى «غيتو» مسيّج بالاسوار، في حين ان اليهود الذين لجأوا الى اسرائيل، انما كان حلمهم التخلّص من «غيتويات» اوروبا (لا العالم العربي!) حيث كان يأسرهم الحقد والخوف، انما بلا اسوار!!!

ولا حاجة بنا الى مناشدتك مناهضة الخطط الاجرامية في معاملة المدنيين الفلسطينيين في الضفة والقطاع (وقد منعتم حتى قيام لجنة تحقيق في مجزرة مخيم جنين)، بل فقط تنويه بسيط بما يلاقيه «المواطنون الاسرائيليون» ذوو الهوية الفلسطينية من اضطهاد (تذكّر الادعاء على النائب عزمي بشارة) وتمييز عنصري في الحقوق، مما تدينه دولتك السنية كلما طرح زنجي اميركي مسألة بسيطة من مسائل هذا التمييز. وأنت شخصياً بذلك أعلم!

•••

لا نريد يا مستر پاول ان نعيد عليك ما قيل وكثر

تـرداده مـــرات عــن حــكـــايـاتــكــم مــع «الارهــاب» و«الاستبداد» مما صار يشبه قصة «السحر الذي ينقلب على الساحر» والساحر لا يتعلّم! ...

فالسلسلة تطول: تبدأ بتنظيركم عن وجوب قيام «العسكريتاريات» في الدول المتخلفة واحتضانكم للانقلابات منذ أول الخمسينات (في القرن الذي ولّى) كنظام انتقالي بين حكم مدني فاسد وحكم مدني ديمقراطي «نظيف»... لأن العسكر كانوا في ظنكم المؤسسة النظيفة والنظامية الوحيدة في العالم «النامي»... فاذا بالعسكر يؤبِّدون وجودهم، كل نظام انقلابي يقلبه عسكر دونه، والسلاح يتدفق (وهكذا العمولات) والحروب كلها الى هزائم، بينما الشعوب تتأخر تنميتها، والحريات يزداد قمعها، والحقوق يكتمل اغتصابها.

الى ان كان انتصاركم لنظام الطالبان تتغلبون به على الاتحاد السوفياتي، فابتكاركم بن لادن وتدريبه وتمويله، الخ... الخ... وصولاً الى تأييدكم غير المشروط للانظمة الرجعية والاستبدادية، شرط حصولكم بأفضل الشروط على نفطها، ثم استرجاع عائدات النفط منها ثمن السلاح الممنوع استعماله في حرب! ... وفي طليعة الانظمة التي أيدتم - هل تتذكر؟ ... - نظام صدام حسين، وفي حرب نصرتموه بها على ايران، وجئتم اليوم تلعنونه!

●●●

قلنا: لا نريد ان نعيد عليك ما قيل وتردد.

فقط، من التاريخ القريب، اننا عشنا اختباراً مماثلاً لما تدعوننا اليه الآن، ولعله يواجهكم اذا انتدبتم انفسكم لحكم العراق.

غداة الحرب العالمية الاولى، ايام كان الرئيس الاميركي الاعظم في مخيلتنا، وودرو ويلسون، يعلن حقوق الشعوب في تقرير مصيرها، فصفق له العرب... اذذاك، نام العرب على وعود حليفتكم بريطانيا بتأييد الثورة العربية ضد الامبراطورية العثمانية، وكانت الحركة التحررية النهضوية في عز يناعها الفكري والنضالي...

واذا بنا بعد الحرب نفيق على نقيض ما غُرِّرَ بنا لتصديقه: أفقنا على وعد بلفور باقامة دولة اسرائيل، ثم على اتفاق «سايكس – بيكو» لتقاسم ارضنا دويلات، بدل الوحدة القومية الموعودة. ولما غضبنا وثرنا، تحولت جيوش «التحرير» البريطانية والفرنسية الى جيوش استعمار لم تتردد في الحرب على عواصمنا.

ثم اخترعت عصبة الأمم نظاماً ليطيّب خاطرنا الوطني الثائر. نظام اسمه «الانتداب»... أي ان تنتدب «عصبة الأمم» الدولتين «الكولونياليتين» بريطانيا (العظمى آنذاك) وفرنسا لتمسكا بأيدينا، عراقاً وسوريا ولبنان وفلسطين، وتقودانا، خطوة خطوة (كدنا نقول: تدرّسانا صفاً صفاً) نحو الاستقلال والديمقراطية.

ماذا حدث؟... لعلك لا تذكر جيداً.

اميركا انسحبت من عصبة الأمم.

وبدل ان تتولى بريطانيا وفرنسا تربيتنا الديمقراطية والاستقلالية، في ظل دساتير شبه ديمقراطية استشرعتها لنا، تشبهاً بنظامها وبمبادئها، انصرفتا شيئاً فشيئاً عن التهيئة الاستقلالية الديمقراطية واضطهدتا حركاتنا واحزابنا الحرة، وريثة عهد النهضة، وسجنتا زعماءنا ثم صوّرتا لنا انهما تريدان التعاون معهم، ثم ما لبثتا ان ضربتهم... الى ان كان ما كان في فلسطين، ثم في لبنان حيث ثورة ١٩٤٣ (والحرب العالمية مستمرة) وفي سوريا عام ١٩٤٥ حين اغارت الطائرات الفرنسية على عاصمتها قبل الاضطرار الى الاعتراف باستقلالها.

•••

تعرف ماذا كان موقف اميركا آنذاك يا مستر باول؟

أيدتنا وشجعتنا. عادت الى المنطقة، ربما بفعل مصالحها البترولية، ما همّ، لكنها اختارت قضية الاستقلال وأيدت الأحرار... وظل أمرها كذلك الى ان وقعت في الفخ الاسرائيلي عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨، فدام أمرها معه هكذا الى حين هزمتنا اسرائيل، وقلنا انها «نكبة»، فاذا بأميركا تتبنى بعد نحو سنتين من الاستقلال - والنكبة - النكبة الكبرى الأخرى: انقلاب حسني الزعيم الذي كان فاتحة العهد العسكريتاري، وقمته الحكم الناصري الذي ما ان حاول التحرر من اميركا

حتى ضربته بقضية السد العالي وما تلاه وصولاً الى «نكسة» ١٩٦٧ ... مع استثناء بطولي واحد هو موقف الرئيس دوايت ايزنهاور ضد العدوان الثلاثي على مصر (الاسرائيلي - البريطاني - الفرنسي).

ومذذاك نحن نتقهقر ابتعاداً عن الديمقراطية، فأهلاً بالصحوة الاميركية اذا كان موقفك الجديد طليعتها.

ولكن... ولكن...

●●●

ولكن على اميركا، قبل ان نصدّقها مرة اخرى، ان تقول لنا أية اميركا تمثل الديمقراطية الحق: أهي ديمقراطية جورج دبليو بوش (ولها في السوابق الدستورية ما يسابق رئاسياتنا: حكم الرئيس جيرالد فورد، مثلاً، الذي لم تنتخبه حتى هيئة محكمة، فقط سلفه نيكسون «واترغيت» اختاره... على طريقتنا نحن، تقريباً!)

أم ديمقراطية الرئيس ايزنهاور وسلفه وودرو ويلسون؟

ديمقراطية افلام العنف وعولمة سندويشات «ماكدونالدز»، أم ثقافة أرقى الجامعات ومعاهد الابحاث ومختبرات الاختراع المذهلة والمتاحف الأكثر ثراءً بالتحف العالمية؟

نريد نحن ان نكون واقعيين يا مستر پاول، فكن انت

واقعياً ولا تعدنا حتى ولا بـ ٢٩ مليون دولار لمشاركتنا في الديمقراطية .

صارحنا بمثل ما صارحنا به رئيس الجامعة الاميركية في بيروت، الاستاذ في علم السياسة الدكتور جون واتربري ، وكان ذلك في المؤتمر الأول لمؤسسة الفكر العربي (المنعقد في القاهرة في تشرين الأول ٢٠٠٢) اذ قال :

«(...) ان الولايات المتحدة قد تسعى الى تشجيع المؤسسات الديمقراطية ، لكنها لن تفعل على حساب أهدافها [الستراتيجية] (...) .

دعونا لا نتمسك بالأوهام. لا قضايا عادلة بالمطلق في السياسة الاميركية . القضايا العادلة ستُحدد وتُتابع بتأثير القوى الداخلية المؤثرة في النظام السياسي الاميركي ، والتي تؤثر ، سلباً او ايجاباً ، في انتخابات السياسيين الاميركيين. ان القضايا العادلة هي نتيجة المصالح الانتخابية للحزبين الرئيسيين وللمرشحين لمجلسي النواب والشيوخ (...) وعلى العرب ان يشتركوا في اللعبة» .

●●●

فيا مستر پاول، رحمة بعقولنا، استأذن اساطيل زميلك رامسفيلد، وصارحنا اذا كنت تبحث فعلاً عن «ديمقراطية الديمقراطيين» ، أم ديمقراطية الذين

ينسجمون مع المصالح الستراتيجية الاميركية والمصالح الأسوأ ديمقراطية: المصالح الانتخابية للحزب الحاكم سعيداً في واشنطن.

وعلى كل حال، في عصر «عولمة المعلومات» - بفضلكم - صار اصطناع ١٩١٩ و١٩٥١، و١٩٧٠ مستحيلاً. شعوبنا عندها المعرفة، فالجواب. وتنتظر مبادرة الاحرار.

فأهلاً وسهلاً بتظاهرة ڤنزويلية تكون هي طليعة الثورة الديمقراطية المنطلقة من ارض النهضة وجذورها التاريخية... او السلام على ديمقراطيتكم وعلى العرب وعلى عراق صدام ومعارضيه... وعلى بن لادنيهم أجمعين!

........................الاثنين ١٦ كانون الأول ٢٠٠٢

"أم المعارك" من الكويت إلى الأمم المتحدة؟

أغرب ما في التظاهرات التي «اجتاحت» معظم مدن العالم وعواصمه ان أعظمها حجماً كانت تلك التي حدثت في واشنطن، وظل طابعها الغالب هو مناهضة الحرب ...

في باريس وباقي اوروبا، جمعت التظاهرات، الى مناهضة الحرب، تأييد القضية الفلسطينية والدفاع عن القضايا العربية والاسلامية بشكل عام. أغرب التظاهرات تلك التي حدثت في تركيا، فانطلقت تأييداً للعراق ضد خطر الحرب وانتهت تضامناً مع الزعيم الكردي «أوج الان» ...

وأغرب من التظاهرات كلها غيابها في ايران ... كأنما ايران ليست مع الحرب ولا هي ضدها، وليست مع العراق ولا هي ضده – وهي ضد أميركا ولكن ليس الى حد التظاهر ضدّها!!!

أضعف التظاهرات كانت بالطبع تلك التي حدثت

في العواصم العربية - حيث حدثت - فأعطت عن «الشارع» العربي الذي كانت ترهبه الحسابات الاميركية (وتخشى ردّ فعله اذا هوجم العراق) صورة تراوح بين الارتباك وهزالة قوى الرفض، فيكاد المراقبون يصدّقون ان هذا الشارع صار طيّعاً للأنظمة الاستبدادية، لا يتحرك الا بوحي منها!

ولكن... ولكن: أين تنفخ رياح «الوحي» هذا؟ أوَلا تدَّعي تلك الأنظمة أنها ضد اجتياح العراق، بل ضد كل حرب اميركية، ولا سيما منها تلك التي «تبشّر» الانظمة بالزلازل؟

تلك هي المسألة؟ ...

أم ذلك هو المأزق؟

•••

أول المآزق انه، في حين يدعو الأمير عبدالله آل سعود (صاحب نظرية «النقد الذاتي» قبيل القمة العربية في لبنان!) الحكام العرب، بمن فيهم الملوك والشيوخ والأمراء وأشباه هؤلاء الى ما معناه المبطّن توجيه الأنظمة العربية صوب مزيد من الديمقراطية، وتنقية العلاقات بين هذه الأنظمة... وهو كلام يفترض الاستغناء عن نظام صدام حسين بالدرجة الأولى، كعربون لصدق التغيير «المطلوب»... لعلّه يصلح ترضية لأميركا تغنيها عن الحرب...

في هذا الوقت بالذات، يطل الرئيس صدام حسين من علو «عراقه» الغارق في الحرب، بل المحتل واقعياً منذ ١٢ سنة (بدليل الغارات الجوية شبه اليومية والغزوات الأرضية ونظام التجويع الدولي الموصوف بالعقوبات)...

يطل الرئيس صدام حسين «محتفلاً» (كذا) بذكرى اندحاره وجيشه من الكويت، وكأن الذكرى هذه لانتصار على اميركا ومَن حالفها، بمن فيهم العرب الأقربونَ!!!

بل أكثر: يمعن الرئيس العراقي (حقّه، من يقدر أن يجادل؟) في تهديد المئة والخمسين ألف جندي اميركي وأساطيلهم الجوية والبرية، بالانهيار الى حد الانتحار أمام أسوار بغداد...

والأنكى من هذه السوريالية كلها أن صدّام ينطلق من ذكرى «انتصاره» في «أم المعارك» (وهو الوصف الذي كان قد أطلقه على غزو الكويت)، الى القول إن «مغول العصر» (اي الاميركيين) قد سبق لهم ان انتحروا «عند اسوار جنين ومدن فلسطين الأخرى»!!!

●●●

المأزق؟... أين المأزق؟

ان ليس ثمة حاكم أو مسؤول عربي سيرتفع صوته (حتى ولا من الكويت!) ليقول لصدام ان مثل هذا

الكلام عن «أسوار جنين ومدن فلسطين» نطلقه منذ ١٩٤٨ هو الذي ضيّع الأرض الفلسطينية، حرباً بعد حرب... وربما لم تكن لتضيع، وربما كان «الانتحار الاسرائيلي» حدث لو وجّه صدام جيشه وصواريخه من اثنتي عشرة سنة الى فلسطين، لضرب النظام الاسرائيلي وجيش احتلاله، بدل ان يسجّل على نفسه وعراقه أول اجتياح عربي لدولة عربية مستقلة، مشرّعاً آنذاك أبواب الجزيرة والخليج والعراق أمام جيوش النظام الامبراطوري الاميركي، وتهددنا، وتستمر، باحتلالات جديدة، وزلازل لا تقاوم!...

●●●

ثم، ثم... أين المأزق؟

قمة المأزق أن تركيا وايران تتصرفان نيابة عن العرب، وكأن عاصمتي الامبراطوريتين الاسلاميتين السالفتي الذكر في التاريخ قد عادتا - معاً أو الواحدة تسابق الأخرى، لا نعرف بعد... - تمسكان بزمام الوصاية على التاريخ العربي المقبل... واحدة تدعونا هي الى مؤتمر عربي في ظل «بابها العالي»، والأخرى تدعونا للابتعاد عن اميركا، في الوقت الذي تتكاثر فيه مراجعاتها (وفي «قمّ»، عاصمة الخميني إياها) لأبعاد الثورة الاسلامية، بينما نحن الى مثلها نحجّ، بل نسابقها الى تطرفٍ تبتعد هي عنه...

هذا كله، بينما التاريخ العربي مشلول بسلفيته وجاهليته، لا يجرؤ الحكام المدّعون صناعته حتى على الاجتماع في قمة محض عربية للتشاور معاً ولو في طريقة صوغ «الحل السلمي» الذي يدرأ شرّ الحرب، أو يقيم عنواناً لمعارضتها كما تعارضها شعوب الأرض قاطبة، من واشنطن بالذات الى ... الصين واليابان.

●●●

أما بعد، فماذا في كواليس باريس؟

في غير المنظور من الاهتمامات، تسجيل موقف الماني قد يتزايد التركيز عليه فيصبح، خلال فترة قصيرة، «كرة ثلج» تدخل باب مجلس الأمن مع تولي ألمانيا رئاسة المجلس الشهر المقبل.

الموقف هو تجرؤ المستشار الألماني غيرهارد شرودر على القول ان مفتاح الحل ربما كان تنحية صدام حسين (وهو ما تهمس به أكثر من عاصمة، بدءاً بأنقرة ووصولاً الى ... عواصم الصمت العربية!!!).

وماذا، يتساءل بعض الدبلوماسيين، لو طرحت المانيا الموضوع على مجلس الأمن؟ أوَيكون الهدف مجرد الظفر باكساب الاقتراح شرعية قرار دولي يتخذ انطلاقاً من القرار ١٤٤١ الذي يتعثر تنفيذه؟

ثم ماذا لو ترافقت المطالبة الدولية التي تقودها باريس، بتمديد مهلة لجنة التحقيق (التي اعلن رئيسها

من الإليزيه أنه لا يزال يحتاج الى وقت غير قصير) مع الاقتراح الالماني الذي يملأ اذذاك فراغ الانتظار؟

بل ماذا لو أدى ذلك الى «وضع يد» مجلس الأمن على حالة عراقية صارت «تهدد الأمن والسلام الدوليين» (بأسلحة تجزم اميركا بأنها موجودة، ولو لم تجد اللجنة على وجودها دليلاً... بعد؟) نتيجة تصرّف عراقي أرعن تنذر بمثله «خطبة أم المعارك» الصدّامية؟...

بل ماذا لو افتعل شارون، قبل الانتخابات او فوراً بعدها (وهو في تطرفه المجنون «حليف موضوعي» للتطرف العربي المتمثل في العراق كما في ارهاب بن لادن!!!) مبرراً لاجتياح عسكري، او غارة جوية على هدف موهوم بقصد استدراج الجيش الأميركي المحتشد، عاطلاً عن العمل، ينتظر مبرراً للتحرك؟

أوَلا يضطر مجلس الأمن اذذاك الى التحرك لوضع حد لخطر الحرب؟... ويصفّق العالم، وفي طليعته، «العالم» العربي الباحث عمن يملأ فراغ سياسته؟

وماذا يمنع، خلال ذلك، ان ينشأ، ربما نتيجة «ضربة» اميركية «يتيمة»، حالة فراغ حكم في بغداد، او فوضى، أو أي شيء مماثل غير متوقَّع... فتنتدب الأمم المتحدة نفسها لحل القضية العراقية سلمياً، وتأمين قيام نظام ديمقراطي بديل، وبحراسة قوى حفظ سلام دولية، فلا «يضع يده» الجيش الاميركي على العراق تلقائياً وبدون تفويض... كأنه أمام افغانستان أخرى!

... أفغانستان تضم العراق وفلسطين في آن واحد!
تلك تكون «أم المعارك» الدبلوماسية!
فهل يخوضها العرب، أم يتركونها - أياً كان شكلها والمنطلقات والقواعد - تجري على حسابهم، وهم يتفرجون؟

● ● ●

قد يقال، بل سيقولون حتماً ان كل ذلك ليس سوى افتراضات يأنفها «العقل العربي» الذي كان باستمرار «يمجّ» التحسب حتى للمنتظر، فكيف بالتحسب للمستحيل؟ ... أَلَمْ نرفض التحسب، مثلاً، للممكنات المستبعدة... كسقوط القدس، واحتلال سيناء، و«ذوبان» الضفة الغربية، وبناء الأسوار الاسرائيلية لا حول جنين فحسب، بل حول بيت لحم، فضلاً عن تسوير «الأراضي المحتلة» لئلا يستعاد الحق فيها بالمقاومة التي يصفونها، ادانة لها، بالارهاب؟ ...
ويقع العرب مثلاً، لغياب التحسّب، في فخ محادثات دستورية، وبالذات بدعوة من بريطانيا العظمى، صاحبة «انتداب» عصبة الأمم لها على حكم فلسطين، عام ١٩١٩ ... فانتهى الانتداب الى قيام اسرائيل بعد ثلاثين سنة، والعرب مذذاك، منذ ١٩٤٨، يبحثون عن أوصافٍ لهزائمهم يستعذرون بها من التاريخ!

كل ذلك لأننا لم نتحسب، لم نحسب للعدو واستراتيجياته البعيدة المدى حساباً، لم نصدّق ان ما يبدو لنا «غير معقول» قد يصبح بالقوة، معقولاً، ونحن صاغرون نصفّق لأبطالنا، يستبدون بنا من منابر هزائمهم، ولا حول لهم ولا قوة الا في استباحة الشعوب وحرياتها وحقوقها... والشعوب بالكاد تجرؤ على التظاهر؟

ربما، كل ذلك وأكثر... أليس بيننا من يستمر يتصنّع التصفيق لصدام حسين يحتفل بانتصاره في «أم المعارك»... على اميركا التي استباحت عراقه، وورثت احتلاله للكويت التي «اندحرته» منها، فتوزعت قواعدها مذذاك في كل الجزيرة والخليج، ونحن «لم رأينا ولم سمعنا»؟؟؟

●●●

أصدق الناس عندنا شعراؤنا.

شاعرة لبنانية كتبت عام ١٩٨٢ :

«على نقيض الرجال الذين يموتون مرة فقط،
«الأوطان لها حياة متعددة.
«هكذا، يبدو عادلاً
«أن يموت انسان لانقاذ وطنه،
«في حين أنه من العبث
«أن يُهلك وطنٌ من أجل رجل.

«ولكن، ماذا لو حدث ذلك؟
«أي لو حدث غير المعقول:
«أرض تزول، من أجل رجل؟»
كان ذلك عن لبنان... ولم يتعلم اللبنانيون!
فهل يدرك العرب سوانا ذلك، فيشترون أرضهم بثمن رجل؟

.... باريس، الاثنين ٢٠ كانون الثاني ٢٠٠٢

نزاع القارات على الكون... وعلينا !

هل هي الاميركا ذاتها التي كانت جزلة بافتعال «نزاع على القارات» يحل محل «صدام الحضَارات»، فتشن انطلاقاً منه حربها «العراقية» التي كان بادياً انها صارت مؤكدة ... حتى اذا ما اصيبت بالذهول لسقوط المكوك «كولومبيا» وتفجّره في الفضاء، تبدّل وجه رئيسها وتغيّرت لهجته واللسان، فأعلن تصميم اميركاه على الاستمرار في برنامج اكتناه دنيا نجوم أشعيا النبي، دافعاً بحدود المعرفة العلمية واختبار العوالم الى المرتبة القصوى؟

... من غير ان ينسى الصيغة المستحدثة للدعاء الاميركي التقليدي: ان «يستمر» الله في مباركة اميركا!

●●●

فجأة، تستيقظ اميركا، فتعي حقيقة حجمها،

وازدواجية هذا الحجم، فتعلن ببساطة تكاد تكون بيروقراطية: لا هرولة الى اتهام «الارهاب» الذي كان هاجسها، وذلك لأن انفجار «كولومبيا» حدث على ارتفاع «لا قدرة للعوامل الارضية على بلوغه»! ...

هكذا تضع اميركا نفسها في مرتبة وحدها ...

هي في آن واحد وليدة تفوّق كانت «عراقيّات» جورج دبليو قد غيّبته: تفوّق علمي (لا تفوته رموز اشراك عالمة هندية فذّة، وقائد طيران اسرائيلي، وبالأمس امير سعودي طيّار، وعلماء روس، من مخلّفات السوفيات، ساعة كان يعوزهم تمويل اختباراتهم... فاذا بهم فور سقوط «كولومبيا» يهبّون سبّاقين إلى الفضاء من جديد، ويعرضون على اميركا مساعدتها هناك في محنتها!!!)... الى جانب ذلك، تفوّق صناعي، اذاً اقتصادي ومالي لا نظير له، ومع هذا يهتز «دولارها» امام العملة الاوروبية الفتية.

قياساً بذلك، ألا يتوجب على المراقبين الذين دوّختهم رقصة التساؤلات العراقية ان يتوقفوا للتأمل في كيف يمكن الظن بأن اميركا المتطلّعة الى حدود الفضاء الخارجي تخوض الحرب التي بها تهوّل على العالم خوفاً من ... نظام صدام حسين وعراقه وقدرة أسلحته - المتعذّر اثبات وجودها - على التهديد (تهديد مَن؟) تارة بالدمار الشامل (الشامل ماذا؟)، وطوراً بالأخطار الجرثومية وما منها وما إليها من كيمياويات؟!!!

فأين المنطق؟ - أين العقل؟

ومَن كان يخدع مَن باختلاق الذرائع ونفخ الاخطار وتعظيمها؟

حتى النفط والغاز ومشتقات هذا وذاك، والآبار والأنابيب... يكاد واحدنا فجأة يتساءل هل يمكن ان تكون دوافع حرب حقيقية، أم فقط أوهاماً وهواجس؟!

●●●

ومن تساؤل الى تساؤل: عملياً، وفي المدى المباشر، هل «توظِّف» واشنطن كارثة، بل مأساة «كولومبيا» (وكان اختبارها سائراً منذ اسابيع ولا أحد ينتبه ولا يتذكّر) في ستراتيجية الحرب التي كانت معلنة سلفاً؟ وهي حرب بوشرت عملياً، ومن زمان، فيما لا يزال ثمة من يظن انها لن تحدث!

الجواب: نعم، وتلقائياً... الكارثة ستكون مناسبة لالتفاف دولي (متفاوت الاخلاص، طبعاً!) حول اميركا. فتأخذ هذه وقتها لكي يعيد طوني بلير فتح ابواب اوروباه المزعومة الشرعية أمام عودة الحوار مع باريس وبرلين... وقد بَادرت العاصمتان التاريخيتان الى اكتشاف مدى القربى بين «عتقهما» وحداثة أميركا... لعل هذه تقلع عن محاولة اصطناع اوروباها من الثانويين الذي يغيظهم - أو يوجسهم، لا فرق - تقارب العملاقين اللذين كانا، حتى أمسٍ قريب، يستقطبان الدنيا الاوروبية في حروبٍ ضارية لم ينسّها أحد بعد...

ومع ذلك، ورغم ذلك... ستصطبغ المرحلة المقبلة من التاريخ بإثم أميركي أين منه شعار «صراع الحضارات» الذي صار باهتاً...

أي «إثم»؟ ...

إثم النزاع على القارات الذي أشرنا اليه: يصير نزاعاً بينها لا عليها. الآن مثلاً القارة الاميركية والقارة الاوروبية تتنازعان، بينما الروسيا تتردد، هل تكمل قفزة القيصر بطرس الأكبر فتتأورب كلياً، أم تحافظ على هوية ذاتية على حدود قارتين، تمكّنها من ترجيح كفة كل نزاع؟ ...

هكذا اليوم، وأما غداً فصدام يصير محتوماً بين هذه القارة وتلك والقارة الآسيوية التي تبدو الآن مجرد ساحة نزاع جيوستراتيجي، لا غير، على مغانم وأسلاب... ربما في انتظار ان يعود ينطلق حلف «عالم ثالث» يستمر الى ان تدخل الصين (والتحريض الكوري لها صار واضح الأبعاد!) الحلبة وتضع ثقلها السكاني والجغرافي، ثم وزن مواردها الدفينة وامكاناتها العسكرية، فضلاً عن العلمية القابلة للتطوير السريع متى صارت اليابان الى جانبها...

●●●

هل يأخذ «نزاع القارات»، او صدامها طريق حرب اذا هي وقعت يشمل زلزالها الكون و... الفضاء

كذلك؟؟؟

لا، كلا ... شبح هذه الحرب سيقلب السحر الاميركي على سَحَرَته، فـ«يفرمل» الأحادية الاميركية وربما دفعها الى الالتفات بنسبة أكبر الى قارتها الأخص بها: كندا طبعاً، ثم البرازيل التي تسلّط ثورتُها الديمقراطية الأضواءَ على امكاناتها الهائلة، وأخيراً الارجنتين التي قد تصبح بؤرة ثورات منطلقة من تناقض كياني بين جوع الانسان وسكناه على ارض غنية انما بخيلة ... ثورات افريقية النمط، بينما افريقّيا نفسها تزداد تحارباً، رغم دور فرنسي أعلنت اميركا فجأة تأييدها ولو شكلياً له، بعدّما كانت متهمة بنسفه!!!

●●●

ويبقى السؤال الذي كان هو «الأوّل»، ولو تضاءل حجمه فجأة قياساً بتوق اميركا الى حدود الفضاء «الخارجي» ...

السؤال الهذا هو: هل في «عدّة» الحرب المقبلة على الشرق الأوسط اتفاقات «سايكس - بيكو» جديدة؟

البحث سيتأجل نظراً الى اضطراب اللعبة واحتمال اعادة خلط الأوراق في إطار آفاق - فقط آفاق - «النزاع على القارات» واحباطاته ... وقد تكتشف اميركا، فجأة كذلك، متى أخذت وقتها لتهضم «كارثة الكولومبيا»

وتعيد تصويب مواقعها الكوزمية، ان انفرادها في حرب شرق أوسطية يستعجل نزاعاً على القارات ليس الآن فيّ مصلحتها.

وسنشهد اذذاك «تصاغر» الحجم الحربي لقضية الشرق الأوسط قياساً بما استُعجل طرحُه من معطيات دولية تغيّرت اضاءاتها.

●●●

عملياً، ماذا يعني لنا ذلك، نحن العرب؟

ان مترتبات الحرب و«تداعياتها» قد تحدث من دون حرب بالمعنى التقليدي... أي بترتيبات دولية تنفتح لها «نوافذ الاحتمالات»، كما يقولون باللغة الديبلوماسية العملانية. وهذا يعني العودة الى مجلس الأمن، فتنال أميركا «ترضية» في حجم «كولومبيا»... على ان يحقق الضغط الدولي المتكامل حصيلة الاهداف التي كانت أميركا ستدفع ثمنها غالياً جداً لو خاضت حربها متفرِّدة.

فماذا يمكن ان يفعل العرب؟

يجتمعون ويتداولون و... يقررون؟

كلا، لن يفعلوا، لأن أحداً بينهم لن يجرؤ على البوح برأيه الحقيقي، ولا بمصالحه الحقيقية... ولن يكشف أحدٌ اوراقه و«بازاراته» الخفية، أمام سائر العرب... فكيف اذاً يتشاورون؟

المسلك «الواجب الوجود» هو الحؤول بأي ثمن

دون ويلات الحرب على الشعوب والأرض والعمران والمجتمعات المدنية المسماة أحياناً «مواطنين» ... أي على الانسان العراقي، ومن ثم الانسان العربي في كل مكان آخر بدءاً بفلسطين!!!

وليدفع الحكام الثمن، لم لا؟ أوَليس «العهد كان مسؤولاً»؟

سينسى الاميركيون غداً الارهاب، فقد جاءهم شغل شاغل آخر ... المهم ألا تقع الشعوب العربية في اسر الحكام وشرك يأسهم، وتظن ان تمثّلها بـ«الارهاب» هو طريقها الى الحرية والسيادة.

●●●

لا، كلا ...

الارهاب، هذه المرة، قد يظن أهله أنه «علينا وعلى أعدائنا يا رب»!!!

فحذار الخطأ.

سيكون شرُّه علينا أكثر منه على أعدائنا. وقمة الحكمة السياسية، لمن يعقلون، ان نطوّر لأنفسنا بأي ثمن – لا من أجل اميركا، ولا من أجل أية قارة سواها بل مَن اجل بقائنا واستحقاق شهاداتنا! – انظمةً ذاتية مستقلة السيادة تُحسن الافادة من الظرف الدولي اذا صار مؤاتياً (بل اذا صيّرناه نحن كلنا مؤاتياً، أو نحن على الأقل ساهمنا في ذلك ...) لنعالج جذور الارهاب

ونُسقط أهدافه في آنٍ واحد.

كيف؟ ...

نعالج جذوره بالحرية والتنمية البشرية، بدل هدر الثروات - وكلنا بعهرها أعلم - والتقوقع في الجاهليات التي تيسّر استعمارنا، في ظلال دكتاتوريات لن تحمينا!!!

ونسقط اهداف الارهاب بعدم الانسياق الى صراعات الآخرين على ارضنا، بل بعدم استدراج هذه الصراعات حتى لا يتوسّل الأفرقاء الدوليون الارهاب في حروبهم هم، بعضهم ضد البعض، انما على ارضنا وبأجسادنا وعقولنا التي يستعبدون وقلوبنا التي يشحنون، من فرط جهلنا والتخلّف. ولنا من «تجربة» الحروب اللبنانية أبلغ دليل!

●●●

وبعد، فقد يكون مؤتمر سلام نعمل لانعقاده قبل الحرب خيراً لنا - كي لا نضيّع الفرص كالعادة! - من مؤتمر سلام بين المتحاربين - بعد الحرب طبعاً - نكون نحن «موضوعه» (والضحية!)...

طموحنا الى مؤتمر سلام يفتدي الحرب، نكون أفرقاء فيه، فيكون لنا اذذاك دورنا الحق في تقرير مصيرنا... او، في اسوأ الاحوال، الدفاع عن هذا الحق بالكلمة والحجة والمفاوضة، في زمنٍ تتلاشى معه

قدراتنا على الحد الادنى من الدفاع عن النفس والأرض والدولة بسلاحٍ كان ولا يزال كاذباً، وسليباً!!!

.... الاثنين ٣ شباط ٢٠٠٣

المأزق الأميركي أمام بدائل الحرب والثورة

- ١ -

نبدأ هذا المقال بالاستشهاد بهذه الفقرات من البيان الذي اذاعه رؤساء الكنائس المسيحية الاوروبية في ٥ شباط، نتيجة اجتماع عقد في برلين («أوروبا القديمة»، في نظر الوزير الهمايوني دونالد رامسفيلد!) بدعوة من مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس اوروبا والمجلس الوطني لكنائس المسيح في اميركا ومجلس كنائس الشرق الاوسط:

«- اننا نرفض ان تعتبر دول العالم القوية الحرب اداة مقبولة للسياسة الخارجية، من جديد. ان هذا يخلق جواً عالمياً من الخوف والتهديد وعدم الأمان».

«- ليس في مقدورنا ان نقبل الأهداف المطروحة للحرب على العراق، من الحكومات المعنية وخصوصاً الولايات المتحدة. ان استخدام الضربات العسكرية الوقائية والحرب كأداة لتغيير نظام الحكم في دولة

مستقلة ذات سيادة هو أمر لا أخلاقي ويخرق ميثاق الأمم المتحدة».

«- يجب ان تضمن حكومة العراق [...] حقوق الانسان الكاملة لكل رعاياها، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وحضارياً. يجب ان يمنح العراقيون الأمل في وجود بدائل من الديكتاتورية ومن الحرب».

«- ستكون للحرب نتائج غير مقبولة على الصعيد الانساني، كتشريد الكثيرين [...] واحتمال حدوث الحرب الأهلية اضافة الى قلقلة الوضع في المنطقة عموماً. ان حال اطفال العراق وكل اولئك الضحايا الذين ماتوا بلا سبب وبلغ عددهم مئات الالاف خلال اثني عشر عاماً من الحصار على العراق، انما يجثم على صدورنا».

«- اننا نحذّر من النتائج الطويلة الأمد لحرب كهذه في المجالات الاجتماعية والحضارية والدينية وايضاً الديبلوماسية. ان تغذية نيران العنف، التي تستهلك المنطقة، انما سيزيد افكار التطرف والكراهية قوة، ويولّد مزيداً من عدم الأمان والاستقرار دولياً. إن علينا، كرؤساء للكنائس المسيحية في اوروبا، واجباً اخلاقياً ورعوياً في تحدي كره الغريب في بلداننا، وتخفيف مخاوف العالم الاسلامي من ان ما يدعى الغرب المسيحي هو ضد الحضارة والدين والقيم الاسلامية. يجب ان نسعى الى التعاون من أجل السلام والعدالة وكرامة الانسان».

تعليقنا الوحيد على هذا الاستشهاد هو سؤال، نوجهه بحرقة وأسى الى جميع الذين لم يرتفع صوتهم، من أعماق الاسلام، حتى في لبنان وسوريا، ربما عن خوف حتى لا نقول عن انعدام الشجاعة: أوَهذا الكلام هو «الحرب الصليبية» التي سارع بن لادن - وكل متصنّع بن لادن أصغر وأحقر! - الى التصدّي لها، فتخافتت الأصواتُ المسلمة التي تجرأت وعارضت بل فقط اعترضت وحذّرت؟

- ٢ -

سؤال آخر نوجهه الى «لبنان» (أي لبنان؟) الذي صرّح، إثر اجتماع - لعله عُقد لمجرد انقاذ مظاهر شهادة الزور؟!! - أنّنا «نرفض الحرب على العراق»...

عال. عظيم، انما كيف؟

وماذا يترتب على هذا «الرفض» العربي البليغ، ولو خافت الصوت؟

«تصلّي» الحكومات العربية، وكأنها، هي أيضاً - معاذ الله! - كنائس ليس إلاّ، وأية كنائس؟

أم ان تلال جماجم شهداء الاستبداد التي يتربّع عليها حكام العرب المعلومون ليست عروشاً حصينة الى حدّ يمكّنهم من اكثر من الدوران في حلقة مفرغة، هذا يزور ذاك قبل استقباله ذلك، في انتظار «انعقاد مؤتمر القمة في الموعد المحدد له»، أي ١٥ آذار ... ولماذا العجلة؟

نكتفي اذذاك بتبلّغ نتائج الحرب، او «نقيّم» المساعي التي بُذلت (بضم الباء لتجهيل الفاعل) للحؤول دون وقوعها... ونصدر بيان تأييد، ونستمر؟

... نستمر؟ معاذ الله؟

نعود نكرر ما قلناه مراراً:

الحرب اذا وقعت، ستليها ثورات وثورات، ولا أحد منا في وسعه ان يعرف مَن يقوم بالثورة وضد مَن...

ولعل الثورات تكون أفضل من الارهاب، بن لادن بعد بن لادن، لأن الثورة يفترض فيها ان تكون محاولةً اقامة حكم بديلٍ، انطلاقاً من رؤيا للمستقبل وفلسفة للثورة...

أما الارهاب الذي يصفّق له الجهلة في سرّهم... يستنكرونه علناً ويلقون على الناس العظات التي تهيئ له وتبرره... الارهاب فعل هدم «نيهيلي»، بل هو حتى في أجمل تنظيراته، فعل يأس بالكاد «سلفي» التبرير، لا رؤيا «مستقبلية» له وهو بمثابة الاستقالة من التاريخ!

وحرام الاستقالة من أمجاد تاريخنا، بحجة الحفاظ عليها مصبّرة كالمومياءات، لا تحميها سوى الاغتيالات التي تزخر بها سجلات الطغاة، ولو بالعقائد البالية ينظّرون!

●●●

ثم أمر آخر نردده، ولو بدا شعاراً أكثر منه رأياً:

الاستبداد حليف الاستعمار ...

ليس مثل الاستبداد والطغاة باسمه يمهّد للاستعمار ويجلبب الفساد (بما في ذلك، بل في طليعة ذلك «الفساد العسكري» ولا حاجة الى تفسير ...) بالشعارات القومية واستدعاء الامجاد وادّعاء البطولات.

وليس من طريق يسلكها الاستعمار اسهل من طريق «تسطيح الشعوب» (رحم الله معلّم القوميين العرب الدكتور قسطنطين زريق) الذي هو حصيلة تطبيع الامم والدول بـ«طبائع الاستبداد».

وأبلغ مظاهر التطبيع هذا، بل «التدجين» (بحيث يغدو الانسان بمثابة الحيوان الداجن، «المطبّع» على التظاهر والتصفيق حتى للهزائم) على ما قال الدكتور زريق، هو «طرب» المثقفين مثلاً لـ«رفض الحرب» و«استنكارها»، و«معارضة العولمة» الخ ... الخ ...

ولا بأس من تكرار ما قال الدكتور زريق (وهذا ما قرأنا بعضه على التلفزيون بالامس نسجله لمن لم يسمع):

المبادرة، في الانشاء الحضاري، لا تأتي من الجماهير [...]

نخبة المثقفين كانت أضعف من قطاعات اخرى في التصدي للحكم الاستبدادي، لا بل تآلفت مع انظمة عربية تسطّح الشعوب [...]

نخبة المثقفين غرقت في لجج الجماهير وسايرت الحكم في التنظير فصارت تبعة شعارات، وفي أحسن الحالات مناضلي صالونات. [...]

المثقفون العرب جوّزوا للحكم القوي ان يضحّي بالحرية وتبعاً لها بالحقيقة، في سبيل تحرير قومي صار بعد ذلك مزعوماً! ... أ. ه.

وإلى بقية باقية من المثقفين الذين قد لا يزالون يسألون: إلامَ كان يدعو الدكتور زريق في آخرته، وإلامَ يمكن ان ندعو من بعده، الجواب هو (بالحرف) «مقاومة الغربة عن المجتمع و[مقاومة] الارتماء في احضان الاحباط والضياع!».

واطلق الدكتور زريق على هذا السلوك اسماً: «طريق العقلية - العملية - المستقبلية» في النظر الى التاريخ. أي «العقلانية الأصيلة الحيّة» ومحتواها الكياني هو في نظره «الحرية الذاتية».

- ٣ -

اما بعد، فماذا «على الارض»!

أمور ثلاثة تستحق التوقف عندها لأنها قد تكون علائم المستقبل:

أولاً: عجز اميركا عن اقناع العرب والمسلمين بأن حربها ليست عليهم، بل هي «من أجلهم» ... اي انها، أبعد من اطاحة صدام حسين، تهدف الى بناء «نظام

جديد» (والتعبير يعود الى هتلر، ومن قبله الى لينين وستالين ...) يجمع بين اقامة ديمقراطيات متأمركة حيث كانت الانظمة استبدادية رجعية. واستطراداً مكافحة الفقر والتخلف، ربما بتمويل من الثروات (لا الثورات ...) العربية التي كانت تُنفَّق هدراً وعهراً وفساداً وافساداً ...

وهذا أمر سيصعب اخذه جدياً، لأن ماضي اميركا في التعامل مع حالات مماثلة لا يشجع على التفاؤل بأن الدولة الطامحة الى التفرد الامبريالي ستتحول فجأة عن استيحاء مصالحها القومية (كما اعترف بذلك صراحة وزير خارجيتها) لتتصرف على ما يشبه الجمعية الخيرية ...

«الواقعية العملية المستقبلية»، بالذات متى اتشحنا بها، يجب ان تدفعنا الى التفاعل مع هذا الكلام بكثير من الحذر، حتى لا نقول اكثر!

●●●

ثانياً: بروز احتمال دولي لعله يصير بديل الحرب، متجانس فكرياً مع احدّى النظريات «الكيسينجرية»: عرض القوة للوصول الى الهدف منها، انما من دون استعمالها (FORCE WITHOUT THE USE OF FORCE).

عملياً، لن يخلو الامر من تصعيد عسكري دراماتيكي، يسانده «مشهد» القوى المهولة المحشودة،

فينهار النظام العراقي لا تحت وطأة «المشهد» و«التهويل» فحسب بل كذلك بشيء من التحركات الداخلية الانقلابية بل الثورية. وهو ما اشار اليه الى حد التسليم به بل التلويح الامير سعود الفيصل في اكثر من حديث. والفائدة (السعودية خصوصاً) من الامر هي انقاذ الانظمة العربية الواجلة من التداعيات...

مثالنا على ذلك سوريا حيث انتقلت بعض القيادات المعارضة العراقية الى ارضها تدعو اعلامياً رسمياً الى اسقاط صدام حسين بينما الحكم السوري يعارض الحرب!

... والكويت - وهي معذورة لأن «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!» - التي اقترحت، ونالت، تجييش قوة خليجية مختلطة على ارضها ليس فقط للحماية من اخطار مبهمة الهوية، سواء كانت خطراً على القوات الاميركية المرابطة داخل حدودها، ام خطراً من هجوم عراقي مضاد يصيب السلامة الكويتية... ام اخيراً خطر تظاهرات «شارعية» ضد الحرب، تهدد «النظام»، ولا قدرة للقوات الكويتية وحدها على قمعها، كما لا رغبة في اشراك الاميركيين في القمع!

●●●

ثالثاً: بروز اقتراح اوروبي - روسي يُطرح على مجلس الامن، وربما نَعِمَ الاقتراح بتأييد الامين العام

كوفي عنان وبعض اعضاء مجلس الامن (غير المقتنعين ببلاغة حجج الوزير باول!). وينص الاقتراح، بعد اليأس من تجاوب نظام صدام مع «لعبة» المراقبين وما اليها، على اجازة باستعمال القوة، انما «قوة دولية»، تساندها معنوياً ومن غير تدخل القوات الاميركية «المستعرَضَة» (كيسينجر) ومن ورائها حاملات الطائرات وطيران المراقبة.

الامل، بهذا الاقتراح، ان مجرد اتخاذه يُسقط شرعية صدام حسين ويبيح الثورة عليه، فتتدخل القوة الدولية بما فيها القوات الاميركية المظللة بالاعلام الزرقاء لتأمين النظام وحماية حقوق الانسان بوجود مراقبين من المؤسسات الدولية المتخصصة بذلك... وهذا ما يطالب به «المثقفون الاوروبيون» الذين (بالاذن من غلاة العرب!) وقعوا بياناً مماثلاً لبيان بيروت.

- ٤ -

هل تسلك «حرب العراق» احد هذه السبل الثلاثة، فتنقذ الإجماع الدولي في مجلس الأمن وتنقذ اميركا من مأزقها كذلك؟... ام تستمر اميركا الرئيس بوش في زخمها، متحدية الرأي العام الدولي، بما في ذلك الرأي العام الاميركي المتزايدة مناهضته للحرب رغم مهرجانات الارهاب الفكري التي يقودها الوزير رامسفيلد حتى في مجالس التحالف الاطلسي الاوروبي؟

من يدري؟ ... ليس هنا مجال التكهن.

الذي يهمنا تسجيله عربياً ولبنانياً، هو اننا مرة اخرى عجزنا عن القيام بمبادرة خلاّقة عملية لأن «طبائع الاستبداد»، المنقطعة الوصال مع مناهل «ثقافة السلام»، في المجتمعات العربية الحرة كما في العالم الخارجي، لم تجرؤ على الانتقال الى واجهة الممارسة، ولا الى التصدي ولو بالرأي للانفرادية الاميركية (شأن الروسيا وفرنسا والمانيا والصين) بل اكتفت باللغة «الخشبية» المرددة للمطالبات الطوباوية بالحل السلمي والتحذيرات الاقل طوباوية من اخطار حرب ليس في وسعنا منعها ولا استهواء واشنطن ببديل منها.

●●●

ومرة اخرى لم تكن «الاستبدادية» حليفة للاستعمار فحسب، بل حليفة موضوعية لاسرائيل كذلك!

كانت «طبائع الاستبداد» حليفة للتفرد الاميركي لأنها لم تتجرأ حتى ولا على الدخول في المشاورة مع المتصدّين لهذا التفرد من حلفائه ... بحيث يكون للعرب دور في «التسوية» مع اميركا، بدل ان يكونوا مجرد «موضوع» للتسوية وربما مخزن المغانم والاسلاب الذي سيغرف منه المتصالحون، قارة مع قارة!!!

اما التحالف «الموضوعي» مع اسرائيل فصارخ فاضح!!!

هو حالة الصمت المريع التي ابتليت بها «عواصم القرار» (!!!) العربية ... فلا هي قادرة ولا هي حاولت فرض اعادة النظر - ولو «النظر»! - في القضية الفلسطينية على واشنطن، ولا هي نالت من واشنطن ثمن اسلاسها القياد لها، تحركاً اميركياً جدياً لمنع «الغول» شارون من التهام الارض الفلسطينية، بعدما اسرف الى الحد الاقصى في اصطياد المقاومين!

●●●

ولا نزال عند رأينا انه كان في وسع العرب، وربما لا يزال اذا «عقلوا عملياً» وتحرروا علانية من تضامنهم مع «الاستبدادية» الصدامية، وطالبوا جدياً - وبتفاهم مع روسيا وأوروبا والصين لا خجل به ولا وجل منه - بمؤتمر سلام لتفادي الحرب في الشرق الاوسط ... مؤتمر يسبق الحرب بدل أن يليها ليكرس نتائجها.

غير واقعي الاقتراح؟

اميركا لن تتجاوب؟

ربما ... لكن الحكام الاكارم كانوا على الاقل «اشتروا» لأنفسهم سلاماً مع «الشارع العربي»، لقاء قيامهم بمبادرة حرة خلاقة.

فبدل ان يثور الناس غداً على اميركا والحكام العرب

معاً، في حفلة غيظ واحدة، كانوا على الاقل «تظاهروا» تأييداً للمطلب العربي (الجامع) بعقد مؤتمر سلام ينظر في قضية العراق وفلسطين في آن واحد... بدل ترك اميركا تضرب العراق، بينما يضرب شارون فلسطين!

مؤتمر ينظّم هو - ونحن فيه - لا أميركا وحدها، «خريطة» الشرق الاوسط ويقيم فيه ديمقراطيات لا حاجة الى استيراد نظرياتها، وقيودها، من عواصم النزاع على التسلط علينا وتقاسم خيراتنا، والارض والحدود والشعوب!

........................الاثنين ١٠ شباط ٢٠٠٣

مَن سيحرق ماذا !؟

هل انتهى الأمر في شوارع العالم - كل العالم، باستثناء العالم العربي! - الى «الانتصار»، فلا هيمنة اميركية بعد اليوم، ولا من يحاربون؟

نعم، ولا ...

نعم، صحّت توقعات المفكرين والكتّاب الاميركيين الذين أسرفوا - وكانوا السبّاقين من أشهُر طوال - في الحديث عن «سقوط الامبراطورية الاميركية» الخ ... الخ ...

غير ان الحضور الاميركي، الطاغي باشكال متميّزة، سيستمر، ربما بغطرسة أقل، فيجب ان تكيّف الدول العربية - او ما سيتبقى منها! - سياساتها وتطلعاتها في اتجاهات تأخذ ذلك في الاعتبار، تماماً كما ستفعل اوروبا والروسيا والصين واليابان، والشرق كله ... حتى بريطانيا (العظمى!) التي بدأت تتهيأ لعهد «ما بعد بلير» ولو لم تفصح. والشاهد على ان الديمقراطية البريطانية

لا ترحم هو امثولة سقوط ونستون تشرشل في أول انتخابات، والحرب العالمية التي انتصر فيها لم تكن قد وضعت أوزارها بعد... فقط لأنّ الشعب يريد للسلام حاكماً غير الذي قاده زمن الحرب، ولو انتصر.

•••

هذا عن النعم. و«اللا» اكثر خطراً وخطورة. لا، لم تطوِ اميركا صفحة الحرب وقرارها، ولعلها «البشرى» الوَحيدة التي صدق وزير خارجية عربية في اطلاقها.

معه حق الأمين العام كوفي عنان في توقعه استمرار المساعي السلمية، لكن هذه المساعي ستلبّي بعض أهداف الحرب الاميركية، ومنها شيء من الانتشار العسكري الاميركي، وإن مظللاً بالأعلام الزرق. كما ان زخم التغيير السياسي، في كل اشكاله، الذي اطلقته طبول الحرب، صارت له دينامية لا تردّ، خصوصاً في تلك الدول التي كان ولاؤها لأميركا يتخفّى بعبارات الصمت المخابراتي، من الخليج الى سوريا، مروراً بالسعودية ومصر نفسها والعراق بالطبع.

•••

وبعد، فلنسجّل بعض الاحداث الرموز من الزاوية التي تعنينا:

١ . عاصفة التصفيق في قاعة مجلس الأمن - للمرة الأولى في التاريخ - مساء الجمعة لخطبة شاعر كان يمثّل فرنسا وأوروبا القديمة على حقيقتها الجوهرية، دومينيك دو فيلبان، كرّست قيام عهد دولي جديد. هو «العهد» الذي كان قد أعلنه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في باريس عندما قال ان صدور «البيان الثلاثي» (الفرنسي - الألماني - الروسي) من باريس لا من موسكو ينفي عودة العالم الى القطبية «الثنائية» (أي الحرب الباردة) ويؤكد ان الحاجة هي الى نظام دولي جديد متعدد الاقطاب (ولم يقل «المحاور») يلتقي في منظمة الأمم المتحدة، وتسوسه الشرعية الدولية. فلا «تفرّدية» بعد اليوم لأي قطب يفرض ارادته على القانون والناس، دولاً وشعوباً. هكذا، في وجه «القوة الصافية» المهيمنة بتفوقها التكنولوجي والعسكري، انتصرت حكمة «الحضارة العتيقة» التي تكرّس تعددية «عالم الأرقام» المترامي في الخمس قارات، ولم تكن اوستراليا النائية المنسية الأقلّها غضباً.

٢ . «الحقيقة التاريخية» الأعمق التي يجب استنتاجها من غضبة الشعوب (والتي ذهبت اجماعيتها الى حد تصدّر اليسار الفرنسي التظاهرات المؤيدة لقرار جازف الرئيس جاك شيراك باتخاذه متحدياً ارث اميركا وحضورها في اوروبا كلها) هي ان العالم يرفض - بما فيه اكثرية الاميركيين غير الصامتة ابداً! - يرفض ان تتحوّل «العولمة» عن ثقافة السلام لتعيد الحروب

تفترس ملايين البشر (كما في ستالينغراد وهيروشيما)، تدمّر مدائن العمار ومنجزاتها الحضارية، أينما كانت، وتحرق الارض أياً كان أهلها وتستجر المآسي اياً كان المعذّبون.

وللعرب من ذلك ان الصورة الأبشع لـ«عالم الحرب»، ولو في لا - وعي المتظاهرين، كانت فلسطين التي يدمّرها ويحرقها ويصطاد أهلها ويجوّعهم ويهجّرهم «الوحش» شارون، بينما اميركا تموّل بالمليارات اقتصاده الذي يزداد تدهوراً، ومجتمعه السياسي يزداد حيرة وأرَقاً وتفككاً وتراجعاً!!!

٣. ادعى ما يدعونا الى التأمل في «الحقيقة التاريخية» التي تبلور بها «سبت الغضب على الحرب»، هو ان جماهير العالم المسمى «العالم المسيحي» كانت الدرع البشرية التي تحمي «دار الاسلام» من «صليبية» جورج بوش المطلّة كالمارد المنطلق من قمقم تَحطّم ... بينما كانت التظاهرات العربية والاسلامية ضد الحرب هزيلة، وكأنها صور مشاهد محنّطة من أرشيف أيام عز الحلم العربي الذي هوى ..ّ. ولا يستغفر فقر تلك التظاهرات حسن تنظيم التظاهرة الضخمة الوحيدة، في سوريا، حيث الدولة هناك ارادتها هكذا (دقّقوا في الصور ...) بينما جماهير مصر، الدولة الأكثر كثافة سكانية وعراقة حضارية، جلست تتفرج ... ولم ينزل متظاهر واحد في شوارع شبه الجزيرة العربية وما اليها.

وفي ذلك ما يؤكد «ديمقراطية» العوالم المتعددة التي تظاهرت، وأنْ وحدها الديمقراطية والإيمان بالحريات جوهر «ثقافة السلام»، بينما دولنا نحن الزاهرة في عبقرية البهورة وزهو العهر السياسي والاجتماعي، قد «طبّعت» شعوبها على الاستسلام «القدري» للاستبداد... تطرب لنداءات التدمير التي يطلقها، من مغاور الظلمات، مجنون يدّعي حق الفتوى باسم دين هو منه براء... وادعى ما فيه الى الغيظ دعوته في هذا الظرف بالذات الى «ذبح المسيحيين»... وقمة ما يشهد على جهالته خروج «دولة الدين» المسيحية الوحيدة، الفاتيكان، عن كل تقاليدها الديبلوماسية لترسل الى بغداد، وإلى صدام حسين بالذات، أرفع وأبلغ رسول لديها، ليحاول ايجاد حل سلمي يحمي العراق... هذا فضلاً عن كل نداءاتٍ الكنائس وتصدّيها بأبلغ لغة (وبالحجج التي جبن حكام العرب عن قولها!!!) للسياسة الاميركية وجنوحها الى الحرب.

٤ . الظاهرة الايجابية الابلغ مغزى، في الليل العربي الطويل، كانت مذكرة المثقفين السعوديين المطالبة بالاصلاحات السياسية، بل الدستورية (انما بخفر كان قد تحرر منه الامير طلال المطالب صراحة لبلدهً بالديمقراطية من سنوات، على كونه ابن عبد العزيز آل سعود، بل ربما بسبب من ذلك).

وصدور هذه المذكرة يدلّ عًلى ان تدجين الجماهير

العربية بـ«طبائع الاستبداد»، جعلها تتفرج وكأنها غير معنية، ولكنه لم يقض على الخميرة الاصلاحية بل الثورية عند جماعات غَير منظورة، ترفض ان يستمر المثقفون العرب «معلَّبين» بفضل الأحكام الاستبدادية، لا يحاسبون حاكماً اذا اخطأ ولو الى حد الهزيمة بل الخطيئة، متذرعين بالدفاع عن استقلال الأمة وعزتها وسيادتها... كأنما الأمم يمكن ان تكون، وتظلّ حرة اذا صار مواطنوها كلهم مقموعين مستَعبَدين للسلاطين، ومجوَّعين كما في العراق.

٥ . يضاهي مذكرة المثقفين السعوديين، بل ربما فاقها أهمية، الأدب العراقي في المنفى الأكثر عراقة، في شعره ثم في فنّه، من المعارضة المحتشدة في صالونات واشنطن ولندن. وهو يذهب الى القلب يشتري افتراء نظام صدام على حضارات «ما بين النهرين» الأقدم في العالم، وعلى ارث الخلفاء العباسيين.

وفي هذا الادب (الذي حمل لواءه «ملحق النهار» كما حمل ويحمل لواء الأدب السوري المعارض) ما يدعونا الى ان نميّز بين الديمقراطية التي تظاهرت لها ملايين البشر دفاعاً عن شعب العراق والشعوب العربية في وجه الحرب الاميركية، وبين الدفاع عن حكام هذه الشعوب الطغاة وأنظمتهم!... وحذار ان يظنّ عربي ممّن طوَّعهم الاستبداد ان الملايين التي غصّت بها مدائن العالم المتحضّر تريد للشعوب العربية

والاسلامية ان تستمر محكومة بانظمة «طالبانية» او «بعثية» او ... او ... او ... لا فرق بين ارهابها الجاهلي ومحاولة ارهاب اميركا لاوروبا «القديمة». وغالب الظن ان شعوب «ثقافة السلام والديمقراطية» تحزن على الشعوب التي منعوها من التظاهر - مثلها هي مئات المرات - في وجه حكامها، فانحبست عن التظاهر حتى ضد دولة تدعو الى الحرب التي كانت ولا تزال تهددها.

حظ العرب كبير بأن ثمة في فلسطين الفدائية (وفي لبنان!) من لا يزال يتظاهر ثائراً حتى الموت في وجه الاستبداد، داخلياً كما خارجياً... فيرد إلى العرب شرفهم المفقود!

ترى، لماذا لم يقم زعيم عربي يقترح على مئات الوف الحجاج ان يعودوا في الطريق الى بلادهم من مكة المكرمة مروراً ببيت المقدس، حجاجاً يتجلببون ثياب الإحرام اكفاناً، في اعظم تظاهرة تتحدى شارون: هل كان يكون في وسعه ان يغتال مليون أعزل متبرك بالصلاة الى الله الواحد الاحد؟

●●●

٦. تحية خاصة - اخيراً وليس آخراً - الى بلجيكا، من لبنان.

هي نظيرته، نسبياً، في الحجم، صغيرة في جغرافيا

اوروبا الى حد ان هتلر اجتاحها واحتلها في اسبوعين ثلاثة ... وهي اكثر من لبنان «تعددية»: طوائف بل عروقاً وعناصر، وآداباً وحتى لغات متنوعة مختلفة، ونظاماً ميثاقياً معقّداً.

نحبيها، ونحسدها، لأن ذلك كله لم يمنعها من الحفاظ على وحدتها حين كانت الاولى في اوروبا تهدد اميركا بالڤيتو في المنظمة الأطلسية، متجاوزة انه كان لأميركا اليد الطولى في تحريرها ...

ثم انها ما احتاجت الى «غسيل قلوب» لتتخذ هذا القرار من غير ان تنفجر مكوناتها، ولا احتاجت الى غسيل قلوب (ولا غسل عقول!) لتتجرأ وتقترع ديمقراطياً بما يوازي الاجماع (في وجه الوعيد الاسرائيلي والتحذير الاميركي) على قانون يجيز ملاحقة شارون ومحاكمته ومحاكمة كل مجرم حرب آخر أمام القضاء البلجيكي، وفي اعصب الظروف ... مأ همها وهي ديمقراطية؟ ...

انها رسالة مزدوجة الى الشعوب العربية، علها تصير تستحق الثورة لحمايتها من الحروب ومن كل ما يحطّم هياكل حرية الانسان وحقوقه!

●●●

أما بعد، فلا يمكن ان نصدّق ان الرئيس پوتين لم يروِ لـ«صديقه» الرئيس شيراك (ولن يروي الحكاية هذه

غداً او بعد غد عندما يلتقي حتماً من قال انه «صديقه» وهو يعارضه، الرئيس جورج دبليو بوش)... حكاية نبلاء الروسيا وأهالي موسكو وكيف انهم، عندما دخل الامبراطور نابوليون الكرملين ليلاً، اشعلوا كلهم في لحظة واحدة قصورهم والمنازل والحقول والحدائق... فلم ينم «الغازي» في سرير القياصرة ولا ساعة واحدة، بل انهزم!... وكانت بداية النهاية لأعظم امبراطورية في تاريخ اوروبا المعاصرة... تلك هي «اوروبا المعتقة»!

ترى، مَنْ في العالم العربي سيحرق ماذا كي لا يدنّس امبراطور آبار الثروة السائبة، مثلاً - ولا نتحدث عن «القصور» الرخامية وجنائنها الغنّاء بآلاف ليالي الأنس فيها... - بينما هياكل التاريخ مهجورة؟

.... الاثنين ١٧ شباط ٢٠٠٣

ناموا واطمئنوا ايها العرب!

﴿لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم. ولكن الله ألّف بينهم انه عزيز حكيم﴾

قرآن كريم

... وهكذا صار في وسعنا ان نقلب صرخة اليازجي قبل النهضة العربية «تنبهوا واستفيقوا ايها العرب» ... فنجعلها دعوة الى النوم الهنيء المطمئن! الله وحده، في حكمته اللامتناهية وعزّته الالهية، كان في وسعه ان يؤلّف بين العرب. وقد اختار الحكام في قمتهم، قبل الاجماع على قرارات من ورق، ان يتكلموا بكل ما يباعد بينهم... وكان احرصهم الشيخ زايد ابو ظبي الذي كاد يقترح - فقط كاد - على القمة ان تقترح بدورها على الرئيس صدام حسين التنحي، وهو ما تتمناه اكثريتهم المطلقة. فطوت القمة الاقتراح بما يشبه الارتباك، كما طوت الاقتراح السوري «الاستثنائي» الوحيد، القاضي باعتبار الدول التي تسمح باستعمال

«التسهيلات العسكرية» [الاميركية] خارج حدودها «دولاً معتدية» [على العراق]...

•••

لا نجد وصفاً أصحّ للقمة وقراراتها من قول الرئيس بشار الاسد في مطلع «مداخلته» (هو وصفها بأنها «ليست خطاباً»!):

«أحياناً يشعر المرء بالخطر (...) وعندما يلامس هذا الخطر (...) يشعر بأن هذا الخطر كان أكبر بكثير مما توقعه. اليوم نحن جميعاً نشعر بهذا الخطر (...) ولكن باعتقادي نحن لا نشعر بحجم الخطر بالمقدار الحقيقي (...) وربما البعض يعتقد ان بعض المسايرات تبعد هذا الخطر اما الى الابد واما الى اجل طويل».

أوَليس هذا ما حدث بالفعل؟ ووافق الاسد رغم تحذيره، ربما، ربما لأنه هو أيضاً اضطر الى ان «يساير» (والكلمة له، إنّما عن الآخرين!)

•••

نريد ان نفهم ما قررته القمة؟

نقرأ بيان الامين العام عنها الذي هو خلاصة «الامر - واقعية»... بل الاستسلامية، اذ دعا الى ان «نكون مستعدين لاحتمال نشوب حرب، وان نكون مستعدين

سياسياً وبمواقف انسانية، ويجب ان يكون لدينا خطة لمواجهة احتمال كهذا ... في الواقع اننا لن نعلن الحرب على الولايات المتحدة (...) ولكن طبعاً فاننا لن ندعم تلك الحرب مهما يكن نوعها».

وفي الواقعية الاستسلامية ذاتها قال رداً على سؤال صحافي انه «يرجو» ان يساهم بيان القمة في «كسب مزيد من الوقت لإبعاد شبح الحرب لأن هذا [البيان] يفتح الباب ويمهّد الطريق لعملية ديبلوماسية عربية نشطة قريباً».

... وبينما الحرب منطلقة فعلاً، لا كلاماً - لكل من يريد ان ينظر الى الاحداث ويتعمق - ستطوف، بقرار من القمة، لجنة رئاسية عربية (مؤلفة من أقل العرب تأثيراً في الاحداث!) على اميركا وأوروبا والامم المتحدة.

● ● ●

عظيم. ولكن، نعرف أن اللجنة ستبلّغ من تجتمع بهم (اذا تمكنت، بالسرعة «العربية» المعهودة، من الاجتماع بهم قبل اندلاع الحرب) - ستبلغهم «الرفض المطلق لضرب العراق الخ ... » و«تأكيد مسؤولية مجلس الامن» ... الى آخر القرارات، ومنها «دعوة جميع الدول لمساندة الجهود العربية الهادفة الى تجنب الحرب» ...

عظيم. ولكن ... يبقى السؤال:

كيف وبأي وزن وأي ضغط وأية حجج وبأية «مساءلة» ديبلوماسية وأيّ وسائل تأثير غير الكلام (والحرب ليست كلاماً بكلام) سنحمل العالم على مساندة «جهودنا العربية» (؟؟؟) ونعزز جهود الدول التي سبقتنا الى معارضة المسيرة الاميركية الى الحرب حين كنا نحن عاجزين حتى عن التظاهر بل حتى عن مجرد الاجتماع؟

•••

... . مع ذلك، ورغم ذلك كله، نرجو ان يفتح الله على العرب ولو «الباب» امام «العملية الديبلوماسية النشطة»!!!

وجل ما نتمناه ان تتفتّق الحيلة العربية عن مبتكرات نجهلها، ولم تبح بها القمة التلفزيونية، تجعل «العملية الديبلوماسية» العربية «نشطة» حقاً، وفعالة.

كي تكون، يجب ان تتحول الخطة الى ما طالب به الرئيس الروسي بوتين، ومن قبله اوروبا: «حلاً عربياً سلمياً».

و«الحل» في العرف الدولي يتجاوز الموقف العربي «المنوِّم» الى الهيكلة العملية التنفيذية ... أي الى ترجمة الأقوال اعمالاً تعطي المطالب الطوباوية بعداً متكاملاً يحمل «حلولاً» للقضايا لا مجرد «رفض

لوجودها» ... لأن لا «حل» للقضايا بدون الاعتراف بهذا الوجود.

والطرح الروسي ينتهي الى المطالبة بتبدئة الحل الفلسطيني على «التصدي العراقي» ... وهو خطوة لم تقدم عليها القمة التي اكتفت بالاعراب عن استنكارها لما يحدث في فلسطين وتضامنها مع الدولة الفلسطينية الآيلة الى الزوال.

فكيف الطريق الى اليقظة قبل «النوم» البائس اليائس؟

●●●

نعود، من ثمة، الى خطبة الرئيس بشار الاسد (ونؤثر كلمة «خطبة» حتى لا نُستدرج الى وصفها بموضوع انشاء أدبي!) حيث يقول عن الاميركان:

«هم يريدون شعباً قلبه ينبض وعقله لا يعمل (...) اي كمن يعيش في حالة السبات. وفقط تتحرك العقول عندما يريدون ...».

من هذا الاعلان المهم، نخرج بسؤال صريح هذا زمنه، فالمعذرة: هل أميركا هي التي القت بالقمة العربية في «حالة السبات»، وهل الاستعمار هو وحده الذي جعلنا «شعباً ينبض قلبه، وعقله لا يعمل»؟

أليست ثمة مسؤولية تلقى على الحكام العرب، وبنوعٍ أخص على أولي القلوب النابضة في الخطب

البليغة؟ ...

أليس الحكام العرب، دون استثناء يا سيادة الرئيس الاسد، هم الذين عطّلوا العقل العربي وأسروه وسجنوا أهله وأصحابه في قوالب عقائدية متحجرة، كتحجر السجون الحديدية التي يسكنها، في العراق وغير العراق، كل من يطالب بحرية العقل، أي بحق النقد والتمييز الذي بدونه لا «يعمل العقل» (كما تقول سيادتك) ولا فاعلية له؟

● ● ●

سيظل العرب نائمين في حالة «سبات رومانسي» ما لم يستيقظ العقل ويخرج، يا سيادة الرئيس، من «السجن العربي الكبير».

وعندما نطلق الانسان العربي العاقل من الاسر الببغائي، يصبح في وسعنا ان نتجاوب مع العالم الذي ينتظر منا «حلولاً» لأزماتنا لا بكاءً مبكراً على اطلال الحرب حتى قبل وقوعها!

حينذاك، إذا حكّمنا العقل بدل الاطمئنان الى انظمة «التنويم»، قد لا تقع الحرب!

.... الاثنين ٣ آذار ٢٠٠٣

حلف مسيحي-اسلامي
يحمل فلسطين الى مجلس الأمن

لا فولكلور ولا بخور مدائح متبادلة!

... وهكذا، عطفاً على كل ما قيل وسيقال بين اليوم والسابع عشر من آذار، يثبت الرئيس جورج دبليو بالافعال انه عند القرار الحاسم الذي اعلن انه ليس في حاجة الى استئذان أحد لاتخاذه: قرار المضي في الحرب على العراق... وقد صارت للحرب هذه مجموعة أهداف كلها تلتقي عند السطوة الامبراطورية، بدءاً بنزع سلاح الدمار الشامل، ثم نزع كامل سلاح العراق، بدءاً بالصواريخ على اختلاف انواعها، ثم اسقاط نظام صدام حسين (الذي لن تنتهي الحرب بسقوطه)، فالاستيلاء على النفط (الذي يبقى «أمانة في عهدة أميركا»)، وصولاً الى اقامة حكم جديد يراوح بين الحاكم العسكري الاميركي (الموقت، الى متى؟) وقيام ديمقراطية «تمثل الشعب العراقي بكل طوائفه وعرقياته ومناطقه» (كذا!) مروراً بفترة انتقالية يتولى فيها «العراقيون الأحرار» القيد التدريب في معسكر في

المهجر على الوظائف الادارية والفنية وشبه العسكرية وذلك في رعاية معارضة متفاوتة الظهور واللحمة والصدقية، وقد وصل معظم نجومها الى داخل العراق، من دون انتظار وصول الجيش «المحرر»...

- ١ -

آه، عفواً. الجيش صارت طلائعه هناك، وإن غير منظورة وغير معترف بها. الفوج الثاني في «الطريق الرقم ٨٠» الذي يصل بين الكويت والحدود العراقية الفسيحة... ولعله اجتازها الآن!

والأهم من وصول الجحافل البرية، وحاملات الطائرات والمارينز: هناك الغارات شبه اليومية الاميركية والبريطانية التي تدمّر بعض المواقع العسكرية وأبرزها، داخل العراق - بل «داخله جداً»... -: مراكز الدفاع الجوي بما فيها الرادارات الخ...

وفي المقابل (ولا يستهيننّ بها أحد) فرق الحرس الجمهوري العراقي، وحرس الرئيس، والدروع البشرية على أنواعها تنتشر كلها في شوارع بغداد، حيث مشاهد الحواجز المسلحة تملأ شاشات التلفزيون.

فاذا لم يكن هذا كله حرباً، فكيف تكون الحروب؟

●●●

نسينا شيئاً لعله الأهم:

نزول قطع مؤللة من الجيش الأميركي في مواقع تركية على المتوسط، وخصوصاً «في «هاتاي» (أي انطاكية عاصمة «لواء الاسكندرون السليب»... هذا لمن ينسى!) تمهيداً، لا نعرف كيف، لتوجهها الى حدود العراق الشمالية... كل ذلك رغم معارضة مجلس النواب التركي للاتفاق الذي عقدته أنقرة مع واشنطن، وقيل انه سيطرح على التصويت من جديد، اذا «دعت الحاجة الى ذلك» (كذا...) إلا اذا واكب الجيش التركي الفرق الاميركية، وكانت حماية الواحد للآخر أفعل من قرار «ديمقراطي - اسلامي» لعله يبقى يتيماً، ولو الى حين.

ولما كانت للحروب دوماً سيناريوات عدة، فثمة نظرية شائعة في أكثر من وسط تقول ان الجيش التركي لن ينتظر وصول الجيش الاميركي الى الحدود الشمالية للعراق، بل ربما استبقه واجتاح هو «المنطقة الشمالية» وصولاً الى كركوك. ومعلوم ان تركيا تطالب بكركوك منذ تطبيق اتفاق سايكس - بيكو الذي قسّم الامبراطورية العثمانية اشلاء وانشأ مملكة العراق، واعتبر كركوك (الكردية) جزءاً منها.

ومعلوم كذلك ان مطالبة تركيا بـ«استعادة» كركوك ليست سياسية فحسب، بل هي وليدة حاجة اقتصادية كذلك: النفط، النفط!

واذا تم الأمر، وتكرّس، ينقلب الاقتصاد التركي من

اقتصاد «نام» بل دائم التعثر بالحاجة (حتى لا نقول الفقر) الى اقتصاد غني. ويهون اذذاك دخول تركيا الاتحاد الاوروبي الذي قالت واشنطن انها لا تزال تؤيده، رغم قرار مجلس النواب التركي. ويهون الأمر على اوروبا حينئذ لأن «تركيا نفطية» لن تستمر متسربلة بالبطالة تصدّر الى اوروبا مئات آلاف العاطلين عن العمل. وهذا ما تخشى اوروبا افلات زمامه اذا سقطت حاجة العمال الاتراك (المسلمين!) الى ڤيزا من الدول التي تستضيفهم، ولا سيما منها المانيا.

●●●

كيف - هذا اذا حدث - يؤثر الاجتياح التركي للشمال العراقي على دخول القوات الاميركية العراق؟

جواب: يجعل لها تبريراً اضافياً هو «صون وحدة العراق»... ثم الحفاظ على الأمن اذا ادى الاجتياح التركي الى مقاومة عسكرية من كردستان المكتملة معالم الدولة - وإن من دون الاسم - بما في ذلك وجود جيش شبه نظامي.

ويتحوّل تحرك الأكراد الى مبرر لتحرك ثوري في باقي أجزاء العراق... وتسود حالة غير بعيدة عن الحرب الأهلية التي سيعجز نظام صدام، وجيشه، عن قمعها والدفاع عن بغداد (وعن صدّام، صدّام...) في آن واحد.

وتنطلق «العمليات» الاميركية بعد ذلك، وقد قيل علناً ان فصلها الأول هو قصف مكثّف من الجو وبالصواريخ من البحر ... فتسود حالة «أبوكاليبتية» لا يعرف أحد كيف تتطور.

أخطر مظاهر هذه الحالة بروز القوة الاميركية، المتكامل تحركها بصورة مهولة، كعنصر وحيد قادر على الحسم فتختلط الاوراق باستعادة جورج دبليو صورته «الامبراطورية» التي يحلم بها، والتي تكون لم تتأثر كلياً بعد بكل المعارضات التي بدأت تتآكلها:

من الداخل، حيث تتمرد قطاعات متزايدة الفاعلية من الرأي العام ومجلسي النواب والشيوخ (كتشكيل لجنة للنظر في «دستورية» الحرب من دون قرار مجلس الامن)، وتتصدى للمعارضة العلنية مجالس الكنائس كلها، فضلاً عن استقالة من استقال كمستشار السفارة الاميركية لدى اليونان، والسيدة تشارلوت بيرز مساعدة وزير الخارجية التي كلفت «تلميع» صورة اميركا لدى العرب والاسلام، وشائعة استقالة من لم يستقل بعد كالمستشارة الاولى كوندوليزا رايس بحجة الرغبة في الترشح لحاكمية ولاية كاليفورنيا.

وفي الخارج، الأزمة في مجلس الأمن اللاسابق لها منذ الحرب الباردة، علماً بأن الهدف الفرنسي من تصدّر «حركة الرفض» الأممية هو الحؤول دون اتخاذها (عند هذا الحد) انقسام العالم كما ايام السوفيات عالمين، مع فارق ضخم هو فقدان واشنطن الولاء

الكلي من جانب اوروبا، يقابله اصطفاف الروسيا والصين ومعظم الشرق الأقصى والشرق الأوسط، بمن فيهم العرب والمسلمون، ظاهرياً على الأقل... وأخيراً غياب «قوة ثالثة» هي محور عدم انحياز يقلل زخم المواجهة.

هذا، علماً بأن بروز «القوة الامبراطورية» المتفردة لن يمنع خروج المعارضات من اطار مؤسسة الشرعية الدولية. فهذه المعارضات لن تخوض حرباً دفاعاً عن العراق، ولا لاسقاط الامبراطورية في «واترلو» ما، كما ايام نابوليون... ولكنها ستنطلق في حركات عداء شارعية ورأيعامية لا نستبعد ان يغذّي بعضها «الارهاب» الذي بدأت الحرب الاميركية ضده في الأصل، قبل ان تتوجّه بديلاً منه الى العراق.

- ٢ -

عند هذا الحد، يحسن بنا تسجيل المتغيرات الآتية في «البانوراما» الدولية علّ ذلك يساعد في القاء ضوء على الاحداث المحتملة بعد حرب العراق:

أولاً: خلال الحرب الباردة - أي خلال ما يزيد على نصف قرن - كان الطابع الغالب على الحروب التي شهدها العالم انها حروب بين «الصغار» بأموال الكبار واسلحتهم وعقائدهم، وفي رعايتهم في غالب الأحيان، بل بـ«ادارتهم» للحروب وحلولها حيناً بعد حين.

أما الآن، فحرب العراق هي أول حرب تشنها دولة عظمى، بل الدولة العظمى، على دولة صغيرة، مع خطر توسعها الى أكثر... وينقسم الكبار حيال هذه الحرب، انما يعجزون عن منعها وعن المشاركة لا في «رعايتها» فحسب، بل في ادارة حلولها كذلك.

ثانياً: الأمل الوحيد في انقاذ مؤسسة الأمم المتحدة كان يكون بتلبية واشنطن نداء فرنسا، الذي وجهه بدراماتيكية لا سابقة لها الوزير دومينيك دو فيلبان، اذ اقترح قمة يحضرها رؤساء الدول والحكومات في إطار مجلس الأمن (وربما حضر شيراك منفرداً لتكرار الدعوة شخصياً) لابتكار صيغة جديدة للمشاركة في ايجاد منهج جديد لمواجهة قضايا الحرب والسلام، وفي طليعتها فلسطين والشرق الأوسط.

ثالثاً: ما لم يقله الوزير الفرنسي، وهو الخلفية التاريخية لما تصح تسميته «أزمة الأمم المتحدة» هو ان المنظمة الدولية نشأت عام ١٩٤٥ من «رومانسية» الانتصار على الفاشية والنازية (محور برلين - روما - طوكيو) التي صوّرت للعالم ان الجبارين المنتصرين، أميركا والاتحاد السوفياتي، يؤمنان معاً بنظرية واحدة لاعادة بناء مجتمع دولي جديد حول «الديمقراطية الدولية» ذاتها.

وهي خرافة انفجرت، تدريجاً، مع تصاعد الحرب الباردة التي أدت الى شلل في «الأمم المتحدة» لم تخرج هذه منه الا في الفترات القصيرة المتقطعة التي

كانت تلتقي خلالها مصالح الجبارين. فالحاجة الآن هي الى صوغ تعاقد جديد للتعامل الدولي، ضمن الأمم المتحدة او خارجها، قد لا يكون ممكناً قبل توقف اميركا عن تفردها الامبراطوري، الذي لا «جبهة» بعد تبدو مستعدة او قادرة على مواجهته بحربٍ باردة فيرتدع، أو بحربٍ «ساخنة» فيتوقف ويصالح.

- ٣ -

هل معنى ذلك كله ان العالم قد يدخل مرحلة تذوب معها مفاهيم الشرعية الدولية ونواميسها بل مؤسساتها، فنقارب ما يصح وصفه بـ«حالة الغاب الدولية»؟ ...

ربما ... حالة غاب سرعان ما سيبدو للجميع، ولاميركا بنوعٍ خاص، ان من المستحيل معالجتها بالتقسيط ...

و«التقسيط» هنا معناه، بل مواضيعه - وساحات حروبه المتنوعة الاشكال - هي الأزمات الاقتصادية - الاجتماعية في اميركا الجنوبية، من المكسيك الى البرازيل والحبل على الجرار ...

والأزمات السياسية والعنصرية، على خلفيات اقتصادية واجتماعية (وصحية!) في كل دولة من افريقيا، الغنية كالفقيرة ...

ومثل ذلك الصراعات في المحيط الهندي، وكوريا، والفيليبين و ... من يدري ماذا بعد؟

ناهيك بالنزاعات المرتقبة والممكنة، انطلاقاً من «المراوحة» الأفغانية (والشيشانية) وما قد يتولّد في العراق والشرق الأوسط من تفجيرات!

مثل هذه الأزمات، هل ثمة ميدانياً - أي داخل الدول والقارات - منظمات وأنظمة قادرة على التصدي لها وحل نزاعاتها سلمياً؟

وماذا اخيراً، وليس آخراً بالطبع عن فلسطين، «المسألة - الجوهر» في قضية الشرق الأوسط؟ صحيح ان الأمم المتحدة لم تتمكن من ايجاد الإطار الصالح لحلها منذ قرار التقسيم عام ١٩٤٧، لكن الأمم المتحدة كانت اداة صالحة، في يد ما تيسّر توافقه من الدول، لايجاد هدنة من هنا أو بوليس دولي من هناك... الى ان أفلت الزمام، ولا يزال.

فهل ثمة من يصدّق حقاً ان أميركا الامبراطورية، قادرة على ان ترتد، بعد العراق (أيُّ عراق اذذاك؟) صوب القدس وفلسطين لتطرح، وإن بحد أدنى من الصدقية والعدالة، حلاً سلمياً مقبولاً، لا يكون بدوره منطلقاً لحروب أخرى؟

●●●

على هذه الخلفية، يبدو عالمنا العربي مضحكاً، بل مضحكاً جداً، الى ان يحين زمن البكاء، ولعله قريب...

اذ ماذا غير الهزء يمكن ان توحي به المشاهد الفولكلورية، والكلام والتحرك القروي الحجم الأكثر فولكلورية، حتى لا نقول «بدوية» جاهلية ... ؟

ولا نستثني لبنان، ولو كان في العمق أرجح العرب عقلانيةً ... إلا ان عمق عقلانيته هذه تشلّها كالبنج، اضافة الى أزماته العضوية المقيمة، روائح البخور المتصاعدة من المدائح المتبادلة، أناشيد كلام فارغ بعد أناشيد.

إلا ان ذلك لا يمنعنا ختاماً من الإلحاح على دعوتين:

الأولى أن نبذل كل ما في وسعنا لنبقي لبنان شاهداً على ان ما يجتاح عالمنا المشرقي، وصولاً الى قلب آسيا، ليس حرباً صليبية كما ظن - وإن في زلّة لسان - سيد اميركا الامبراطورية ... وقد اثبتت مبادرة الفاتيكان والكنائس الروسية والاوروبية والانغليكانية وحتى الاميركية كلها انها ضد حربه، فلا صليبية اذاً من دون صليب ... وأين الصليب اليوم في العراق؟ على صدر اميركا وعسكرها؟ كلاّ! فمن أحرى من لبنان بالدعوة الى حلف مسيحي - اسلامي في وجه جنود «صراع الحضارات» المصطنع؟

وحسب الاسلام اسقاطاً للصليبية المزعومة، ولادعائها وحدها حق نشر الديمقراطية وحقوق الانسان، الدعوات المسلمة الأسلم والأصدق تمثيلاً للتطلعات العربية والشرقية عموماً: بيان الاصلاحيين

السعوديين الذي يلخص عرائض المثقفين العرب، على اختلاف مناهلهم ومقاماتهم، بل هو يبلورها ويتوجها ... ثم نداء المرجع الفقهي الأكبر السيد محمد حسين فضل الله (وفي «النهار» بالذات، فشكراً): ان نوصل الى «الداخل الثقافي» العالمي «ثقافة اسلامية انسانية تعترف بالآخر وتعتبر الحوار اساساً لحل المشاكل في هذا المجال وتنسّق مع الآخر في مواقع اللقاء على أساس: «يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم».

فحذار ان يبلغ بنا اليأس من احتمالات السلام حداً يمنعنا من جعل هذه الدعوة الى صميم اميركا المستكبرة، بدل رسائل الكلام الدبلوماسي المخشّب الذي نعرف سلفاً ان لا استماع له؟

●●●

ثم، ثم ... الدعوة الثانية: حذار ان يبلغ بنا اليأس حداً نستمر عنده في التفرج على الحرب التدميرية الدموية في فلسطين، فلا نتكلم حتى بمثل ما يتكلم به الفرنسيون والروس، ولا نتقدم وإن بشكوى على اسرائيل الى مجلس الأمن نجعلها مناسبة مزدوجة، من جهة لاستقطاب المعارضين لحرب اميركا على العراق في جبهة تبقي في مجلس الأمن بقية من تحرك وحياة ... ومن الجهة الأخرى لاعلان استمرار ايماننا

بالشرعية الدولية قاعدة لحقوقنا، وضامناً لحقوقنا، بمعزل عن اميركا... فلا نكون نحن بمنزلة «البرابرة» الذين اسقطوا الامبراطورية الرومانية في التاريخ، بل تصير قدسنا ومكة والفاتيكان هي عاصمة الشريعة، والبرابرة هم الذين يناصرون شارون والذين لا يريدوننا ان نعلم ان ارهاب بن لادن ما هو سوى الوجه الآخر لاسرائيل، فضلاً عن كونه حليف حماتها.

.............................الاثنين ١٠ آذار ٢٠٠٣

المطابع التعاونية الصحفية ش. م. ل.، بيروت، لبنان
آذار ٢٠٠٣

... لكن الأصح قولاً هو إنه أعتُدي على القوة، أعظم قوة، القوة الأميركية ... فبدا واضحاً لهذه القوة المهوّلة كم هي عاجزة عن الدفاع عن نفسها... هي تقدر على الرد، والانتقام، فالانتصار، كما فعلت بعد "بيرل هاربور"، ولكن ثمة شيء في طبيعة القوة يجعلها عاجزة بنسبة ما هي مهوّلة. ليس فقط عاجزة عن حماية نفسها، بل عاجزة كذلك - كما في الروسيا والشيشان، وبنسبة أصغر بكثير كما بين اسرائيل والفلسطينيين... عاجزة عن الحسم السياسي، عندما لا تتصرف بسياسة بدل استعمال "القوة الصافية."...

غ. ت.





ISBN 2-84289-425-1